مُحَاضَرَاتٌ

حَوْلَ هِجْرَةِ سَيِّدِنَا رَسُولِ ٱللهِ

صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

مِنْ مَكَّةَ ٱلْمُكَرَّمَةِ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ٱلْمُنَوَّرَةِ

ألقاها

الإمام المفسر المحدث الشيخ

عبد الله سراج الدين الحسيني

رضي الله تعالى عنه

جمع وتقديم

محمد محيي الدين سراج الدين

اعتنى بتخريج أحاديثه وضبط ألفاظه

خادم العلم الشريف

بكري برهو السمان

يُطلب من

مكتبة دار الفلاح

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها القارئ الكريم

هب ثواب قراءتك لسورة الفاتحة

إلى العلامة الكبير والعارف الشهير

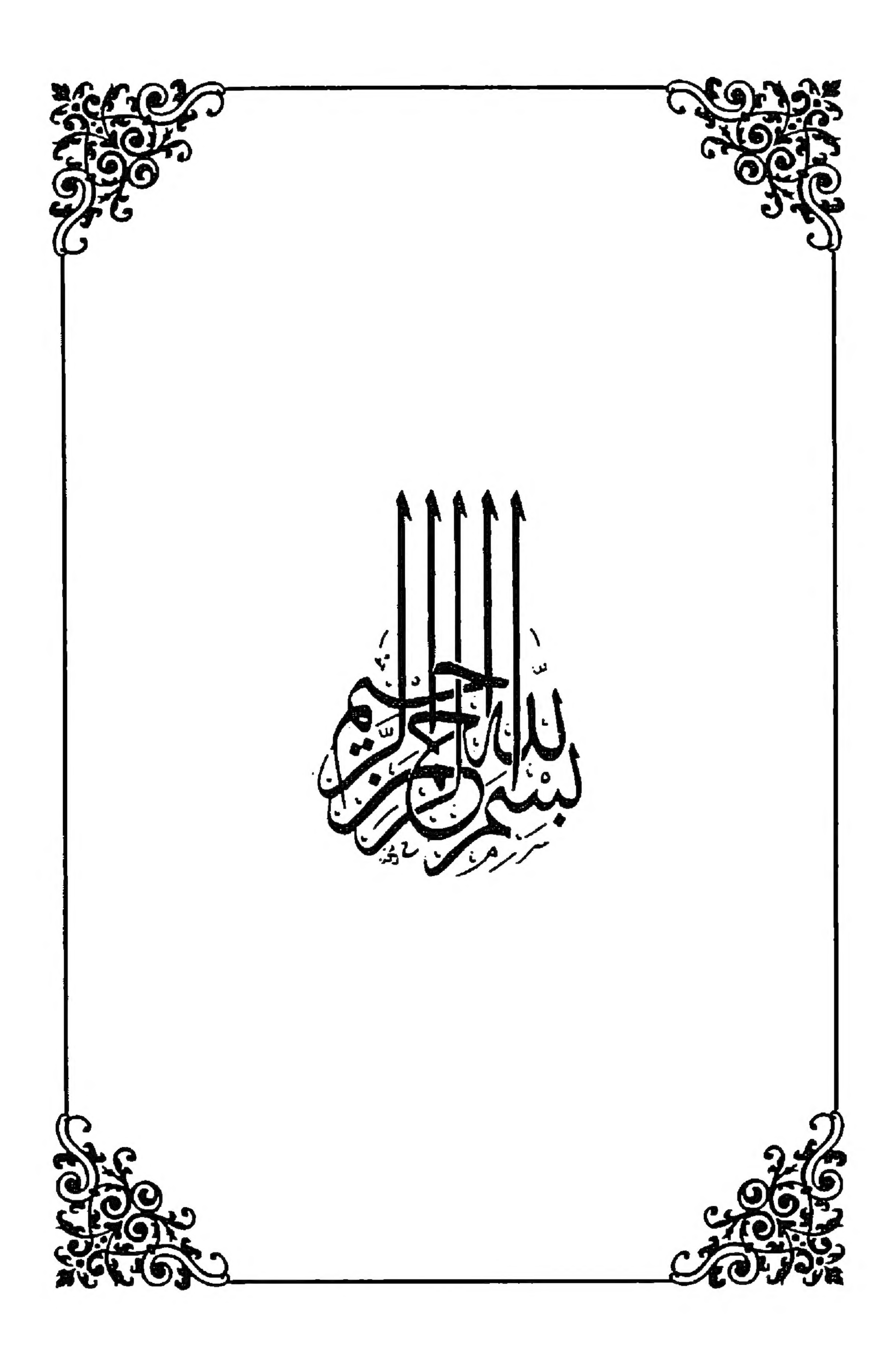
الإمام الحافظ المفسر المحدث الشيخ

عبد الله سراج الدين الحسيني

رضي الله تعالى عنه

كلما قرأت في كتاب من كتبه، أو سمعت بخبره

وجزاك الله خيرا


بسم الله الرحمن الرحيم

مُحَاضَرَاتٌ
حَوْلَ هِجْرَةِ سَيِّدِنَا رَسُولِ ٱللَّهِ

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

مِنْ مَكَّةَ ٱلْمُكَرَّمَةِ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ٱلْمُنَوَّرَةِ

ألقاها

الإمام المفسّر المحدّث الشّيخ

عبد الله سراج الدّين الحسيني

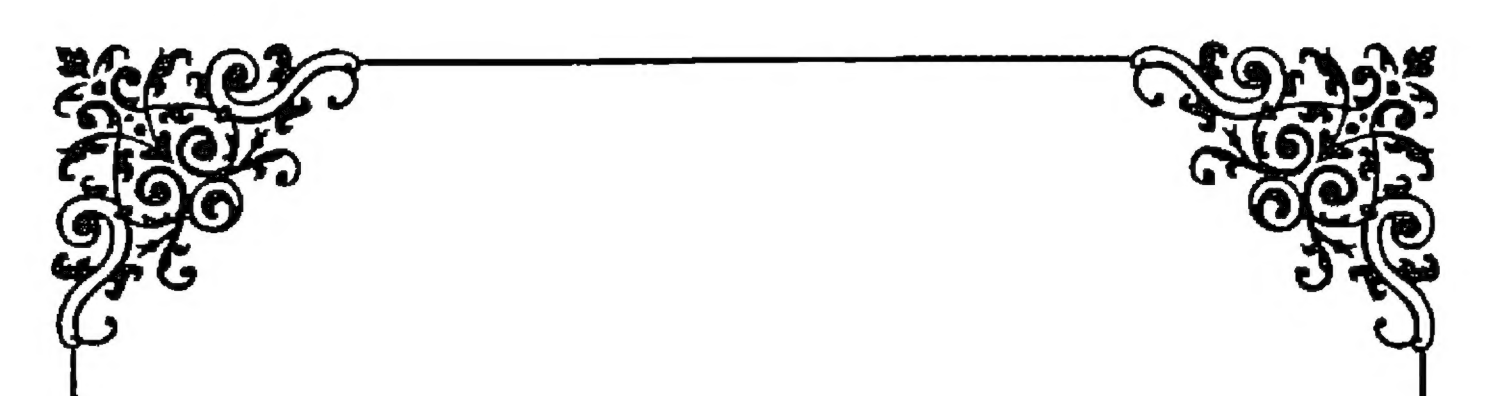
رضي الله تعالى عنه

جَمْع وَتَقْدِيم

محمّد محيي الدّين سراج الدّين

يُطْلَبُ مِنْ

مكتبة دار الفلاح



الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م





مؤسسة
الشام للطباعة والتجليد
دمشق - هاتف: ٢٢٢٤٥٢٢ - ٢٢٢٤٩١٤٢ ص.ب ٢٥١٨٩
E-mail: oakkad@mail.sy

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فإني أُقدم للقارئ الكريم عملاً جديداً من الإرث العلمي الطيّب، الذي خلّفه مولانا الشيخ الإمام عبد الله سراج الدين رضي الله عنه، وتركه نفعاً لمن بعده.

وهذا العمل عبارةٌ عن مجموعة محاضرات، ألقاها شيخنا الإمام رضي الله عنه في جامع بانقوسا، في مدينة حلب حرسها الله تعالى وسائر بلاد المسلمين، تتعلق بهجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، وهجرةِ أصحابه الكرام رضي الله عنهم.

وذلك لأنّ هذه المناسبة يحتفل المسلمون بذكراها

في كل عام، لِمَا لها مِنْ أثَرٍ كبير على تاريخ العالم الإسلامي بأسره، ولتعلّقها بشخصية النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، الذي ثَوَتْ محبته في القلوب والأرواح.

وهذه المحاضرات ـ التي بين يديك ـ تُذكّر المسلمين ببعض ما انطوت عليه الهجرة الشريفة من حِكَم عالية، وأسرار دقيقة، ربما يغفل البعض عنها، ويظن أنَّ الهجرة مُجرد حدث تاريخي حصل وانتهى.

فهي تحكي قصة الهجرة النبوية، وحماية الله تعالى لرسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم في جميع أحواله وشؤونه. وكم عانى المهاجرون وقاسَوا.

وتَحْكي موقف الأنصار المُشَرِّف مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومع أصحابه المهاجرين وفيها وصف أمّ معبد رضي الله عنها لشخص النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بكلمات دقيقة، وعبارات بليغة رقيقة.

وتنبّه على سبب اختيار الهجرة الشريفةِ مبدأً للتاريخ الإسلامي، وما ينطوي على ذلك مِنْ حكم وفوائد تعود على الأمة المحمدية بالخير والسعادة.

وتفصّل موضوع فضل المهاجرين والأنصار، وتبيّن حقوقهم على المسلمين مِنْ بعدهم.

كما أنها تلفت إلى ما كان عليه حال المهاجرين الكرام رضي الله تعالى عنهم مِنْ ذُلّ وإهانةٍ وتعذيب من قِبَل المشركين، ثم انقلب الحال بالهجرة، فانتقلوا إلى دار نُصرة وأمان وسعادة مع إخوانهم الأنصار، حتى إنَّ الأنصاري كان يخيّر أخاه المهاجري أن يتزوج إحدى زوجتيه، ويقاسمه ماله، ومع ذلك أبدى المهاجرون رضي الله عنهم كل التعفّف والنزاهة. وهذا قوله تعالى في الأنصار: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

ولابدّ مِنَ الإشارة إلى أنَّ الهجرة هجرة الذنوب والخطايا باقية إلى يوم القيامة، بدليل قول النبي صلى الله

عليه وآله وسلم: «والمُهاجر من هجر ما نهى الله عنه» كما في صحيحِ البخاري (١٠)، وصحيح مسلم (٤٠).

والله تعالى أسأل، وبحبيبه الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أتوسل، أن يجعل ثواب ذلك في صحيفة سيدي الوالد الشيخ الإمام عبد الله سراج الدين رضي الله تعالى عنه، وفي كتاب أعماله الواسع، إنه سميع مجيب.

وقد جاء في صحيح مسلم (١٦٣١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنْتَفَعُ به، أو ولد صالح يدعو له».

وصَلَّى الله عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلم
كُلَّمَا ذَكَرَهُ الذَّاكِرُونَ، وَغَفَلَ عَنْ ذِكْرِهِ الْغَافِلُونَ
والحَمْدُ لله رَبِّ العَالمِيْنَ.

وكتبه

محمد محيي الدين سراج الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الأولى:

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

لقد بدأ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعوته إلى الله تعالى عندما أمره سبحانه بذلك بقوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤].

وكانَتِ العرب تحج إلى البيت تمسكاً بشريعة إسماعيل عليه السلام ـ وإن كان في أفعالهم أمور غير مشروعة في شريعته ـ فراح ﷺ يتربَّصُ مواسم الحج، حتى يلتقي بجماهير العرب وغيرهم، ويعرض نفسه على القبائل، كما في الحديث عن سيدنا جابر رضي الله

عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يَعرض نفسه على الناس في الموقف، فقال: «ألا رجل يَحملني إلى قومه، فإنّ قريشاً قد منعوني أنْ أبلغ كلام ربي»[1].

وكان المشركون يقابلونه صلى الله عليه وآله وسلم بالأذى، ويحرّضون عليه غيرهم، وهو عليه الصلاة والسلام يتلقّى ذلك بالصبر، لِمَا أعلمه الله تعالى من أنّه سيُظهر هذا الدين، وينشر الإسلام على العموم، بقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح: ٢٨] ولِما أوحى الله تعالى إليه بالوحي النبوي مِنْ أن دعوته ﷺ ستعمّ جميع المناطق المعمورة، كما في الحديث عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٣٩٠)، وأبو داود في كتاب السنة (٤٧٣٤)، والترمذي في كتاب فضائل القرآن (٢٩٢٦) والدارمي في كتاب فضائل القرآن وابن ماجه في المقدمة.

الله تعالى زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنَّ أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِيَ لي منها»[1].

ولمّا اشتد الأمر عليه صلى الله عليه وآله وسلم، أوحى الله إليه أنَّه قد اقترب أوان الفرج، وأنَّ الله سينشر دعوته صلى الله عليه وآله وسلم، بأن يهيِّئ له أقواماً صادقين في القول والعمل، يعاهدونه على الموت.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا إنّ الإيمان يمان، والحكمة يمانية، وأجد نَفَس ربكم من قِبَل اليمن»[2]. يعني: أنَّ تنفيسه جلّ وعلا لهذا الضيق، وتفريجه لهذه الكربات والشدائد، أَجده وأشعر به أنَّه سيأتي من ناحية اليمن.

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٢٨٤)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة واللفظ له (٢٨٨٩)، وأبو داود في كتاب الفتن والملاحم (٤٢٥٢) والترمذي (٢٢٠٣) وغيرهم.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٥٤١).والطبراني في المعجم الأوسط

قال في (لسان العرب): يقال: إنه عَنى بذلك الأنصار، لأنّ الله تعالى نفّس الكرب عن المؤمنين بهم، وهم يمانيون لأنهم من الأَزْد.

فعند ذلك جعل صلى الله عليه وآله وسلم يترقّب وينظر من أيّ طريق سيأتي هذا النَفَسُ الرحماني، فخرج صلى الله عليه وآله وسلم بَعد أنْ مضى عليه عشر سنين في مكة، يعرض نفسه الكريمة على القبائل، كما هي عادته صلى الله عليه وآله وسلم في موسم الحجّ، فبينما هو عند العقبة، لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً[1] فقال لهم: «مَنْ أنتم»؟.

قالوا: نَفرٌ من الخزرج.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أفلا تجلسون أكلمكم»؟ قالوا: بلى.

فجلسوا معه صلى الله عليه وآله وسلم، فدعاهم

(١) أنظره في شرح المواهب للزرقاني ١/٣١٠ ودلائل النبوة.

إلى الله تعالى، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم بعض القرآن الكريم.

وكان مِنْ صُنع الله تعالى: أنَّ اليهود كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب، وكان الأوس والخزرج أكثر منهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء مِنْ خصومة أَوْ محاربة قال اليهود: إنَّ نبيّاً سَيُبْعَثُ الآن قَد أظلّ زمانه نتّبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فلمّا كَلَّمهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم عرفوا النَّعْتَ، فقال بعضهم لبعض: لا تَسبقنا اليهود إليه. فأجابوه إلى ما دعاهم إليه، وصدقوه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام. فأسلم منهم ستة نفر وكلهم من الخزرج، وهم: أبو أمامة أسعد بن زرارة، وعوف ابن الحرث بن رفاعة وهو ابن عفراء، ورافع بن مالك ابن العَجْلان، وقطبة بن عامر بن حديدة، وعقبة بن عامر بن نابي، وجابر بن عبد الله بن رياب رضي الله عنهم.

فقال لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «تمنعون ظهري حتى أبلغ رسالة ربي».

فقالوا: يا رسول الله إنّما كانت بُعاث عام أوّل، يوم من أيامنا، اقتتلنا به، فإنْ تَقْدم ونحن كذلك لا يكون لنا عليك اجتماع، فَدَعنا حتى نرجع إلى عشائرنا، لعلّ الله أن يُصلح ذات بيننا، وندعوهم إلى ما دعوتنا، فعسى الله أن يجمعهم عليك، فإنِ اجتمعت كلمتهم عليك واتبعوك فلا أحدَ أعزّ منك، وموعدك الموسم العام المقبل.

وانصرفوا إلى المدينة، ولم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلما كان العام المقبل لقيه اثنا عشر رجلاً ـ وهي العقبة الثانية ـ فأسلموا، وفيهم خمسة من الطائفة الأولى وهم: أسعد بن زرارة، وعوف بن عفراء، ورافع بن مالك، وقطبة بن عامر بن حديدة، وعقبة بن عامر بن نابي. ولم يحضرها جابر بن عبد الله ابن رياب. والسبعة تتمة الإثني عشر وهم: معاذ بن

الحرث بن رفاعة، وهو ابن عفراء أخو عوف المذكور، وذكوان بن عبد قيس الزرقي، وعبادة بن الصامت بن قيس، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة، والعباس بن عبادة بن نضلة، وهؤلاء من الخزرج، ومن الأوس رجلان: أبو الهيثم مالك بن التيهان من بني عبد الأشهل، وعويم بن ساعدة رضي الله عنهم أجمعين.

فأسلموا وبايعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على بيعة النساء ـ أي: على وفق بيعتهنّ التي أنزلت عند فتح مكة.

روى الإمام البخاري[1] عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وكان شَهِد بدراً، وهو أحد النقباء ليلة العقبة، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال وحوله عصابة من أصحابه ـ والعصابة: الجماعة من الناس ـ: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً،

---

(١) في كتاب الإيمان (١١)، واللفظ له، والإمام مسلم في الحدود (١٧٠٩). وللنسائي في كتاب للبيعة والدارمي في كتاب السير والإمام أحمد في سنده.

ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف. فمن وفّى منكم فأجره على الله، وَمَنْ أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، وَمَنْ أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله: إنْ شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه» فبايعناه على ذلك. وتتمة البيعة في الحديث الذي رواه الإمام مسلم[1] عن عبادة ابن الوليد بن عبادة، عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على السمع والطاعة: في العسر واليسر، والمنشَط والمكره، وعلى أثَرَة علينا ـ أي: على أن يلتزموا أمر النبي ﷺ سواء كان الأمر لهم أو عليهم ـ وعلى أن لا ننازع الأمر أهله ـ أي: الخلافة ـ وعلى أن نقول بالحق أينما كنّا لا نخاف في الله لومة لائم».

---

(١) في كتاب الإمارة (١٨٤٠). واللفظ له والبخاري في كتاب الفتن والنسائي في كتاب الجهاد والإمام مالك في الموطأ والإمام أحمد في سنده

ثم انصرفوا إلى المدينة، فأظهر الله الإسلام، وكان أسعد بن زرارة رضي الله عنه ـ وهو واحد منهم ـ أوّل من صلى الجمعة في المدينة وجمع الناس عليها، لأنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يتمكن من أدائها في مكة، ولذلك أَذِن لهم أن يقيموها في المدينة المنورة، فكان أول من جمع الناس عليها: أسعد بن زرارة رضي الله عنه، بأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يترحمون على أسعد بن زرارة رضي الله عنه، ومنهم: كعب بن مالك رضي الله عنه، فقد روى الإمام أبو داود[1] عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ـ وكان قائد أبيه بعد ما ذهب بصره ـ عن أبيه كعب بن مالك: أنه كان إذا سمع النداء يوم الجمعة ترحّم لأسعد بن زرارة، فقلت له: إذا سمعت النداء ترحمت لأسعد بن زرارة؟!

---

(١) في كتاب الصلاة، باب الجمعة في القرى (١٠٦٩).

واللفظ له والطبراني في المعجم الكبير والبيهقي في سنة الكبرى في كتاب الجمعة

قال: لأنه أول من جمع بنا-أي: صلّى الجمعة بنا في المدينة.

قلت: كم أنتم يومئذ؟ قال: أربعون.

وكتب الأوس والخزرج إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (ابعث إلينا مَنْ يُقرئنا القرآن)، فبعث إليهم مُصعب بن عمير رضي الله عنه، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، وكان يسمى بالمدينة: المقرئ والقارئ، فأسلم على يد مصعب بن عمير رضي الله عنه خلق كثير من الأنصار، وأسلم في جماعتهم: سعد بن معاذ سيد الأوس، وأُسيد ابن حضير، وأسلم بإسلامهما جميع بني عبد الأشهل في يوم واحد الرجال والنساء، ولم يبق منهم أحد إلا أسلم، وذلك[1] أن سعد بن معاذ رضي الله عنه لما ذهب لمصعب رضي الله عنه وأسلم، أقبل إلى نادي

(١) ينظر الخبر في دلائل النبوة، وابن هشام في سيرته (٢/ ٢٨٣).
وشرح المواهب للإمام الزرقاني ١/ ٥١٦ وابن كثير في البداية والنهاية ٣/ ١٥٣
والطبري في تاريخه ١/ ٥٦٠

قومه ومعه أسيد بن حضير رضي الله عنه فقال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟.

قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً وأيْمننا نقيبة[1].

قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله.

قال: فوالله ما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة، حاشا الأصيرم وهو عمرو بن ثابت بن وقش، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد، فأسلم واستشهد بأحد رضي الله عنه.

ولم يكن في بني عبد الأشهل منافق ولا منافقة، بل كانوا كلهم حنفاء مخلصين رضي الله عنهم. وهذه منقبة عظيمة لهم.

ثم قدم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في

---

(١) قال في (لسان العرب): النقيبة: يُمن الفعل، ورجل ميمون النقيبة: أي: مبارك النّفس مظفّر بمايحا ول.

العقبة الثالثة، في العام المقبل، في ذي الحجة، أوسط أيام التشريق من الأنصار سبعون رجلاً وامرأتانِ، فكان أوّل من ضرب على يده عليه الصلاة والسلام في البيعة ليلة العقبة هو البراء بن مَعْرُور رضي الله عنه.

روى الإمام أحمد في مسنده[1] عن كعب بن مالك الأنصاري قال: خرجنا إلى الحج، فواعدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي وعدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومعنا عبد الله ابن عمرو بن حرام أبو جابر، سيد من ساداتنا، وكنا نكتم مَنْ مَعَنا مِنْ قومنا من المشركين أمْرنا، فكلّمناه وقلنا له: يا أبا جابر إنك سيد من سادتنا، وشريف من أشرافنا، وإنّا نرغب بك عما أنت فيه أنْ تكون حطباً للنار غداً، ثم دعوته إلى الإسلام وأخبرته بميعاد رسول

(١) (٣/ ٤٦٠). وصحيح ابن حبان والمعجم الكبير للطبراني.

الله صلى الله عليه وآله وسلم فأسلم، وشهد معنا العقبة وكان نقيباً، قال: فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا مِنْ رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، نتسلّل مستخفين تسلّل القطا[1]، حتى اجتمعنا في الشِّعب عند العقبة، ونحن سبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائهم: نسيبة بنت كعب أم عمارة، إحدى نساء بني مازن بني النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي بن ثابت إحدى نساء بني سلمة وهي أم منيع.

قال: فاجتمعنا بالشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى جاءنا ومعه عمّه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، فلما جلسنا كان

---

(١) قال في (لسان العرب): القطا طائر معروف ـ نوع من الحمام ـ سمي بذلك لثقل مشيه، واحدته قطاة.

العباس بن عبد المطلب أول متكلم فقال: يا معشر الخزرج - وكان العرب يسمّون هذا الحي من الأنصار الخزرج أوسها وخزرجها - إنَّ محمداً مِنَّا حيث قد علمتم، وقد منعناه مِنْ قومنا مِمَّن هو على مثل رأينا فيه، وهو في عزٍّ مِنْ قومه وَمَنَعَةٍ في بلده.

قال: فقلنا: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت - أي: اطلب منا الحقوق التي لله تعالى، والحقوق التي لك، ونحن على استعداد لتنفيذ ما أمرت -.

قال: فتكلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتلا ودعا الله عز وجل، ورغّب في الإسلام وقال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم».

وفي رواية[1] قالوا له صلى الله عليه وآله وسلم: سل يا محمد لربك ما شئت، ثم سل لنفسك

---

(١) في المسند (٤/ ١٢٠)وفي مصنف ابن أبي شيبة وقال في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح.

ولأصحابك ما شئت، ثم أخبرنا مالنا من الثواب على الله عز وجلّ وعليكم إذا فعلنا ذلك؟.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أسألكم لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأسألكم لنفسي ولأصحابي أن تؤوونا وتنصرونا، وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم».

قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟

قال: «لكم الجنة»، قالوا: فلك ذلك.

قال: فأخذ البراء بن معرور بيده صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منهأزرنا[1]. فبايعنا رسول الله ﷺ فنحن أهل الحروب وأهل الحلقة[2]، ورِثْناها كابراً عن كابر.

قال: فاعترض القول - والبراء يكلّم رسول الله

---

(١) أزرنا أي: نساءنا وأهلنا.

(٢) السلاح.

قال ابن الجوزيفي غريب الحديث: قال أبو عبيد: الحلقةاسم لجمع السلاح والدروع وما شابهها.

صلى الله عليه وآله وسلم ـ أبو الهيثم ابن التيهان حليف بني عبد الأشهل فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها ـ يعني: اليهود، وكان بينهم وبين العرب توافق، وأحياناً تقاتلٌ ـ ويريد الصحابي أنّا سنقاطعهم ونهجرهم ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله تعالى أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟!

قال: فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب مَنْ حاربتم، وأُسالم مَنْ سالمتم».

وقد قال رسول الله ﷺ: «أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً[1] يكونون على قومهم».

فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً، منهم تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

فرضوا بذلك ورجعوا إلى المدينة المنورة وجعلوا ينشرون الدعوة.

---

(١) النقيب: كبير القوم المعنيّ بشؤونهم الذي يتعرف أخبارهم ومناقبهم وينقب عن أحوالهم.

وقد خيّر الله تعالى نبيّه في مُهاجره، كما في الحديث[(١)] عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنّ الله تعالى أوحى إليّ: أيّ هؤلاء الثلاثة نزلت فهي دار هجرتك: المدينة، أو البحرين، أو قنسرين».

فاختار النبي صلى الله عليه وآله وسلم الهجرة إلى المدينة، لِمَا مدحها الله تعالى بالتوراة، وسمّاها بطابة، وطيبة، والجابرة، والمحبة، والمحبوبة، والقاصمة، والمرحومة. ومن أسمائها: دار الأخيار والإسلام، ودار الأبرار وغير ذلك إلى نحو مائة اسم. وكثرة الأسماء آية شرف المسمّى[(٢)].

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن الله

---

(١) رواه الترمذي في سننه في كتاب المناقب (٣٩١٩) وقال في شرح المواهب وقد ألف المجد الشيرازي في ذلك كتاباً حافلاً والحاكم في المستدرك و الطبراني في المعجم الكبير.

(٢) ينظر في السيرة الشامية فقد ذكر أسماءها مرتبة على حروف المعجم مع الشرح المفصل لكل اسم.

سمّى المدينة طابة»[1].

ولما تمّت بيعة الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طابت نفسه، وقد جعل الله لَه مَنَعَةً أهل حرب ونجدة. وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لِمَا يعلنون من الخروج، ولأنهم علموا أنه قد يحصل بين المسلمين وبين أهل المدينة توافق، فضيّقوا على أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأتعبوهم، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى. فشكوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «قد أُريت دار هجرتكم، رأيت سبخة ذات نخل بين لابتين»[2]. والسبخة: الأرض الرملة التي لا تكاد تنبت

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٩٤)، والإمام مسلم في كتاب الحج (١٣٨٥)، وينظر البخاري (١٨٧٢).

(٢) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٦/ ١٩٨)، والإمام البخاري في كتاب الكفالة (٢٢٩٧) عن السيدة عائشة رضي الله عنها وابن خزيمة في صحيحه في كتاب الوضوء وابن حبان في صحيحه

لملوحتها. واللابتان هما: الحرّتان.

فجعلوا يتجهزون، ويترافقون، ويتواسون، ويخرجون ويُخفون ذلك.

وأقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكة ينتظر أن يُؤذن له في الخروج.

فكان أول مَنْ هاجر من مكة إلى المدينة أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد، ثم عامر بن ربيعة ومعه امرأته ليلى بنت أبي حثمة، ثم عبد الله بن جحش، ثم خرج المسلمون أرسالاً مستخْفين، ومنهم عمار بن ياسر، وبلال، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم، أما سيدنا عمر رضي الله عنه فلم يهاجر خفية.

أخرج ابن عساكر، وابن السمان في الموافقة [1]،

---

(١) بين أهل البيت والصحابة وما رواه كل منهم في حق الآخر للإمام الحافظ، العلامة البارع المتقن، أبو سعد إسماعيل ابن علي الرازي السمان المتوفى سنة (٤٤٥) هـ رحمه الله تعالى.

عن سيدنا علي رضي الله عنه قال: ما علمتُ أنَّ أحداً مِنَ المهاجرين هاجر إلا مختفياً، إلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإنه لمّا همّ بالهجرة تقلّد سيفه، وتنكّب قوسه، وانتضى في يده أسهماً ـ أي: أخرج أسهماً من كنانته وجعلها في يديه معدة للرمي بها ـ واختصر عَنَزَتَهُ ـ أي: حملها مضمومة إلى خاصرته ـ ومضى قِبَل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها. فطاف بالبيت سبعاً، ثم أتى المقام فصلّى ركعتين، ثم وقف على الحِلَقِ واحدة واحدة، وقال لهم:(شاهت الوجوه، لا يُرغم الله إلا هذه المعاطس، مَن أراد أن تثكله أمه، أو يُؤَتِّم ولده، أو يُرمِّلَ زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي)،فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين عَلّمهم ما أرشدهم إليه، ثم مضى لوجهه.

وتجهَّزَ أبو بكر رضي الله عنه مهاجراً، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «على رِسْلك، فإني أرجو أن يُؤْذَنَ لي».

قال أبو بكر رضي الله عنه: هل ترجو ذلك بأبي أنت؟

قال: «نعم»[1]. فحبس أبو بكر رضي الله عنه نفسه على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر أربعة أشهر.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما[2] قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكة، فأُمِر بالهجرة وأنزل عليه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

وأما[3] قريش فتشاورت في دار الندوة في مكة. فقال بعضهم:

---

(١) كما روى الإمام البخاري في كتاب الكفالة (٢٢٩٧) عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٢) كما في مسند الإمام أحمد (١/٢٢٣)، وسنن الترمذي (٣١٣٨).والحاكم في المستدرك.

(٣) للتفصيل تنظر السيرة الشامية (٣/٣٢٤).

إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق ـ يريدون النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ وقال بعضهم: بل اقتلوه. وقال بعضهم: أخرجوه. فأطلع الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك، فبات عليٌّ على فراش النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال مَعْمَرٌ: قال قتادة[1]: دخلوا في دار الندوة يأتمرون بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فقالوا: لا يدخل أحد معكم ليس منكم، فدخل معهم الشيطان في صورة شيخ من أهل نجد، فقال بعضهم: ليس عليكم مِنْ هذا عين، هذا رجل من أهل نجد.

قال: فتشاوروا، فقال رجل منهم: أرى أن تُركبوه بعيراً ثم تُخرجوه.

فقال الشيطان: بئس ما رأى هذا، قد كان يُفسد ما

---

(١) كما في المصنف للإمام عبد الرزاق الصنعاني، كتاب المغازي (٥/ ٣٨٩).

بينكم وهو بين أَظْهُرِكُمْ، فكيف إذا أخرجتموه فأفسد الناس ثم حملهم عليكم ليقاتلوكم؟!!

فقالوا: نِعْمَ ما رأى هذا الشيخ.

فقال قائل آخر: فإني أرى أن تجعلوه في بيت، وتطيّنوا عليه بابه، وتدعوه فيه حتى يموت.

فقال الشيطان: بئس ما رأى هذا !! أفترى قومه يتركونه فيه أبداً ؟! لابد أن يغضبوا له فيخرجوه.

فقال أبو جهل: أرى أَنْ تُخرجوا من كل قبيلة رجلاً، ثم يأخذوا أسيافهم فيضربوه، ضربة واحدة، فلا يُدرَى مَنْ قتله، فَتَدُونَهُ ـ من الدّية ـ.

فقال الشيطان: نِعمَ ما رأى هذا !!

فأطلع الله تعالى نبيّه على ذلك، فخرج هو وأبو بكر إلى غار في الجبل يقال له: ثور، ونام عليٌّ على فراش النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وباتوا يحرسونه يحسبون أنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فلما

أصبحوا قام عليّ لصلاة الصبح، فبادروا إليه فإذا هم بعليّ، فقالوا: أين صاحبك؟

قال: لا أدري.

فكان سيدنا عليّ كرّم الله تعالى وجهه هو أول مَنْ باع نفسه في الله تعالى، ووفّى بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «نم على فراشي، وتسجّ ببردي هذا الحَضْرمِيّ الأخضر فنم فيه، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم».

ثم خرج صلى الله عليه وآله وسلم من الباب عليهم، وقد أخذ الله تعالى على أبصارهم فلم يَرَه أحدٌ منهم، ونثر على رؤوسهم كلهم تراباً كان في يده، وهو يتلو قول الله عز وجل: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦

لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١ ـ ٩].

وأخذ صلى الله عليه وآله وسلم كفّاً من حصى ورماه في وجوههم، فما تركت الرمية واحداً منهم إلا أصابته في رأسه وعينيه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (فما أصاب رجلاً منهم حصاة إلا قُتل يوم بدر كافراً)، فالذين أصابتهم الحصى قتلوا يوم بدر، والذين أصابهم التراب لم يقتلوا[1]. وهذا من معجزات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فأتاهم آت ممّن لم يكن معهم فقال: ما تنتظرون ههنا؟ قالوا: محمداً.

---

(١) كما في شرح الزرقاني على المواهب.

قال: قد خيّبكم الله، والله قد خرج محمد عليكم، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وضع على رأسه تراباً.

وحكمة وضع التراب دون غيره: الإشارة لهم بأنهم الأرذلون الأصغرون الذين أُرغموا وأُلصقوا بالرغام وهو التراب، أو أنه سيلصقهم بالتراب بعد هذا.

ثم جعلوا يطّلعون فيرون علياً على الفراش متسجّياً برد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فيقولون: والله إن هذا لمحمدٌ نائم، عليه برده.

فلم يزالوا كذلك حتى أصبحوا، فقام عليّ عن الفراش. فقالوا: لقد صدقنا الذي كان حدّثنا.

قال السّهيلي[1]: ذكر بعض أهل السّير أنهم همّوا بالولوج عليه صلى الله عليه وآله وسلم فصاحت امرأة من الدار، فقال بعضهم لبعض: والله إنها للسُّبَّةُ في العرب أن يُتَحَدَّث عنا أنا تسوّرنا الحيطان على بنات

---

(١) كما في الروض الأنف (٢/ ٢٢٩).

العمّ، وهتكنا ستر حرمتنا. فهذا الذي أقامهم بالباب حتى أصبحوا.

وفي هذا نزل بعد ذلك بالمدينة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: وقد اجتمعوا للمشاورة في شأنك بدار الندوة ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي: يُوثقوك ويحبسوك. ـ إشارة لرأي أبي البختري فيه ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ أي: كلهم قتلة رجل واحد ـ إشارة لرأي أبي جهل فيه، والذي صوّبه صَديق أبي جهل إبليس لعنهما الله تعالى ـ ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ أي: مِن مكة منفيّاً ـ إشارة لرأي أبي الأسود فيه ـ ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ أي: يَمكر بهم بتدبير أمرك، بأن أوحى إليك ما دبروه، وأمرك بالخروج ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

فإن قيل: ما الحكمة في هجرته عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة،

وإقامته بها إلى أنِ انتقل إلى ربه عز وجل؟ وهلاّ أقام بها. إذ هي دار أبيه إسماعيل عليه السلام؟.

أجيب: بأنّ حكمة الله تعالى قد اقتضت أنه صلى الله عليه وآله وسلم تتشرف به الأشياء حتى الأزمنة والأمكنة، لا أنه تتشرّف بها، فلو بقي عليه الصلاة والسلام في مكة لكان يُتوهَّم أنَّه قد تشرّف بها، إذ أنّ شَرَفَها قد سبق بالخليل وإسماعيل عليهما السلام، فأراد الله أن يُظهر شرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأمره بالهجرة إلى المدينة المنورة. ولذا لم تكن إلى الأرض المقدسة، مع أنها أرض المحشر والمنشر، وموضع أكثر الأنبياء، لئلا يُتَوهم ما ذكر آنفاً.

وذكر الحاكم أن خروجه صلى الله عليه وآله وسلم من مكة كان بعد بيعة العقبة بثلاثة أشهر أو قريباً منها.

وجزم ابن إسحاق أنه صلى الله عليه وآله وسلم خرج أول يوم من ربيع الأول، فعلى هذا يكون بعد البيعة لشهرين وبضعة عشر يوماً.

وكانت مدة مقامه صلى الله عليه وآله وسلم بمكة من حين الرسالة إلى ذلك الوقت: ثلاث عشرة سنة، كما رواه[1] البخاري رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو قول الجمهور.

وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً كرّم الله تعالى وجهه أن يتخلّف بعده حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس، وليس بمكة أحد عنده شيء يخاف عليه إلا وضعه عنده صلى الله عليه وآله وسلم لِما يعلم من صدقه وأمانته.

قال ابن شهاب[2]: قال عُروة: قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: (فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نَحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول

---

(١) في كتاب مناقب الأنصار (٣٩٠٢).

(٢) طرف من حديث رواه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب مناقب الأنصار (٣٩٠٥).

الله صلى الله عليه وآله وسلم متقنّعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها.

فقال أبو بكر: فداءٌ له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر.

قالت: فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاستأذن، فأُذِن له. فدخل فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر: أَخرج مَنْ عندك.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله.

قال: فإني قد أُذن لي في الخروج.

فقال أبو بكر: الصحابة بأبي أنت يا رسول الله.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم».

قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتيّ هاتين.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «بالثمن».

قالت عائشة رضي الله عنها: فجهزناهما أحثّ الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب. فبذلك سميت ذات النطاقين.

قالت: ثم لحق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر رضي الله عنه بغار في جبل ثور).

وكان من قوله صلى الله عليه وآله وسلم حين خرج من مكة لما وقف على الحَزْوَرَةِ ـ وهي سوق بمكة ـ: «علمتُ أنكِ خير أرض الله، وأَحَبُّ الأرض إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منكِ ما خرجت»[1].

وروى الإمام الترمذي[2] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمكة: «ما أطيبك من بلد، وأحبّك إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنتُ غيركِ».

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٤/ ٣٠٥).

(٢) في كتاب المناقب (٣٩٩٢).

ولمّا فقدت قريش أثر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طلبوه بمكة أعلاها وأسفلها، وبعثوا القافَةَ الذين يعرفون الأثر في كل وجه، فوجد الذي ذهب جهة غار ثور أثره هناك، فلم يزل يتّبعه حتى انقطع الأثر لمّاً انتهى إلى ثور.

وشقّ على قريش خروجه صلى الله عليه وآله وسلم وجزعوا لذلك، وجعلوا مائة ناقة لمن ردّه إليهم بقتل أو أَسْرٍ.

وذكر قاسم بن ثابت[1] في الدلائل[2]: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما دخل الغار، وأبو بكر معه، أنبت الله على بابه الراءة ـ وهي شجرة تكون مثل قامة الإنسان لها خيطان وزهر أبيض يُحْشىٰ به المخادّ ـ

---

(١) أبو محمد الأندلسي المالكي الفقيه الورع الناسك توفي سنة (٣٠٢) رضي الله عنه.

(٢) في غريب الحديث.

جمع مخدّة ـ فيكون كالريش لخفّته ولينه ـ فحجبت عن الغار أعين الكفار.

وعن أبي مصعب المكي[1] قال: أدركت زيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة وأنس بن مالك رضي الله عنهم يُحدثون أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لمّا كان ليلة بات في الغار، أمر الله تعالى شجرة فنبتت في وجه الغار، فسترت وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وأمر الله تبارك وتعالى العنكبوت فنسجت على وجه الغار، وأمر الله تبارك وتعالى حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار.

وأتى المشركون من كل فجّ حتى كانوا من النبي صلى الله عليه وآله وسلم على قدر أربعين ذراعاً. معهم قِسيّهم وعصيّهم، وتقدم رجل منهم فنظر فرأى الحمامتين، فرجع فقال لأصحابه: ليس في الغار شيء، رأيت حمامتين على فم الغار. فعرفت أنْ ليس فيه أحد.

---

(١) كما في مجمع الزوائد: (٦/ ٥٢) وعزاه للبزار والطبراني.

فسمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم قوله، فعلم أنَّ الله تعالى قد دَرَأَ بهما عنه.

وقال آخر: ادخلوا الغار.

فقال أمية بن خلف: وما أربُكم إلى الغار؟! إن فيه لعنكبوتاً أقدم من ميلاد محمد ﷺ.

وقد رُوِيَ أن الحمامتين باضتا في أسفل النقب، ونسج العنكبوت. فقالوا: لو دخل لكُسِرَ البيض وتقطّع العنكبوت.

فتأمل كيف أظلّت الشجرة المطلوب، وأضلّت الطالب، وجاءت عنكبوت فسدَّت باب الطلب، وحاكت وجه المكان، فحاكت ستراً حتى عمي على القائف الطلب[1].

ولما رأى الرصد ذلك على باب الغار، قالوا لبعضهم: ارجعوا فإنّ هذا الغار لم يدخله أحد.

---

(١) كما في المواهب وشرحها.

فقال لهم قائدهم وهو أعلمهم بالقيافة: أما هذه القدم فقدم أبي بكر، وأما هذه القدم ـ أي: قدم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ـ ما عرفت صاحبها، إلا أنها تشبه القدم في مقام إبراهيم عليه السلام جانب الكعبة. وكان صلى الله عليه وآله وسلم أشبه الناس بسيدنا إبراهيم عليه السلام. كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ورأيت إبراهيم وأنا أشْبه ولده به»[(١)].

وجعل سيدنا أبو بكر رضي الله عنه ينظر فوق رأسه فيرى أقدام المشركين فقال: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»؟[(٢)].

---

(١) ينظر البخاري في كتاب الأنبياء (٣٣٥٥) و(٣٣٩٤) ومسلم (١٦٨).

(٢) رواه الإمام البخاري في صحيحه في أول كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

وذكر بعض أهل السّير[1] أن أبا بكر رضي الله عنه لمّا قال ذلك، قال له صلى الله عليه وآله وسلم: «لو جاؤونا من ههنا لذهبنا من ههنا» فنظر الصديق إلى الغار قد انفرج من الجانب الآخر، وإذا البحر قد اتصل به وسفينة مشدودة إلى جانبه.

وروي[2] أن أبا بكر رضي الله عنه دخل الغار قَبْلَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليقَيه بنفسه، وأنه رأى جحراً فيه فألقمه عقبه، بعد أن سدّ غيره بثوبه، لئلا يخرج منه ما يؤذي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فجعلت الحيّات والأفاعي تضربنه وتلسعنه، فجعلت دموعه تتحدّر.

وفي رواية[3] عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله

---

(١) ذكره ابن كثير في كتابه: «البداية والنهاية»، وينظر شرح المواهب للحافظ الزرقاني.

(٢) انظر المواهب وشرحها للحافظ الزرقاني.

(٣) كما في شرح المواهب ١/٣٣٥.

عنه، ثم قال ـ أي: أبو بكر رضي الله عنه بعد استبرائه الغار لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ : ادخل فإني سوّيت لك مكاناً، فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ووضع رأسه في حجر أبي بكر ونام، فلُدغ أبو بكر في رجله من الجحر ولم يتحرك ـ أي: لئلا يوقظ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ـ فسقطت دموعه على وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما لك يا أبا بكر»؟.

قال: لُدِغْتُ. فداك أبي وأمي.

فَتَفَلَ عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذهب ما يجده.

ولأبي نعيم[1]، عن سيدنا أنس رضي الله عنه: فلما أصبح قال صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر: أين ثوبك؟ فأخبره بالذي صنع.

---

(١) كما في حلية الأولياء ١/٣٣، وعزاه في الدر المنثور لابن مَرْدُوْيه.

فرفع صلى الله عليه وآله وسلم يديه وقال: «اللهم اجعل أبا بكر معي في درجتي في الجنة» فأوحى الله إليه: قد استجبنا لك».

وروي[1] أيضاً أن أبا بكر رضي الله عنه لما رأى القافة ـ أي: قُصاص الأثر ـ اشتد حزنه على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: إن قُتلتُ فأنا رجل واحد، وإن قُتلتَ أنت هَلَكَتِ الأمة.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ يعني: بالمعونة والنصر، ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ وهي أَمَنَة تَسكُن عندها القلوب، نزلت على أبي بكر رضي الله عنه لأنّه كان منزعجاً ﴿وَأَيَّدَهُ﴾ أي: أيّد الله تعالى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠] أي: الملائكة ليحرسوه في الغار، وليصرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته ﷺ.

---

(١) كما في المواهب وشرحها ٣٣٦/١.

فانظر وتأمل بعين البصيرة في أمر المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وشفقته على الصديق رضي الله عنه، وكيف أنه ﷺ لما رأى حزن الصديق قد اشتدَّ عليه قوَّى قلبه ببشارة: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وكانت تحفة ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ مُدّخرة له رضي الله عنه دون جميع الصحابة رضوان الله عليهم، فهو الثاني من الرجال في الإسلام، والثاني في بذل النفس والعُمُرِ.

وتأمل قول موسى لبني إسرائيل: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] وقول نبينا صلى الله عليه وآله وسلم للصديق رضي الله عنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

فموسى عليه السلام خُصّ من ربه بشهود المعيّة له وحده، ولم يتعدّ ذلك الشهود إلى أتباعه. أما نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم فتعدّى منه شهوده إلى الصديق رضي الله عنه، ولم يقل: إن الله معي، لأنه أمدّ أبا بكر

بنوره، فشهد سرّ المعيّة، ثم سرى سرّ السكينة إلى أبي بكر رضي الله عنه، وأين مَعِيَّةُ الربوبية في قصة سيدنا موسى عليه السلام مِنْ معيّة الإلّهية في قصة نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ؟!!

وإن اسم «الله» أعظم من اسم «الرب» وأشْمل وأجمع، فكانت معية الله تعالى برسوله صلى الله عليه وآله وسلم معية خاصة شاملة، شملت أبا بكر رضي الله عنه، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

ومكث صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر رضي الله عنه في الغار ثلاث ليال. ثم خرج صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر من الغار، فمروا على أم معبد. ونالت من بركات رسول صلى الله عليه وآله وسلم وخيراته الخير الكثير.

وفي الطريق لحقهما سراقة بن مالك بن جعشم

طمعاً في مكافأة قريش، فساخت قوائم فرسه في الأرض، وطلب الأمان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعاهده أن يردّ عنه الأعداء، فدعا له صلى الله عليه وآله وسلم ووعده أن يلبس سواري كسرى بن هرمز.

قال ابن شهاب[1]: فأخبرني عروة بن الزبير، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام، فكسا الزبيرُ رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبا بكر ثياباً بيضاً.

وسمع المسلمون بالمدينة مَخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرّة، فينتظرونه حتى يردّهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم، فلمّا أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أُطُم من آطامهم - والأُطُم بضم

---

(١) رواه الإمام البخاري في كتاب مناقب الأنصار (٣٩٠٦).

الهمزة والطاء: هو الحصن، ويقال: إنه كان بناءً من حجارة كالقصر- فبصُرَ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه مبيَّضين - أي: عليهم الثياب البيض - يزول بهم السراب - ومعناه أن حركتهم للعين ظهرت فيه - فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب هذا جَدُّكم - أي: حظّكم ومطلوبكم - الذي تنتظرون.

فثار المسلمون إلى السلاح فتلقّوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بظهر الحرة. - وإنما حملوا السلاح إظهاراً للقوة والشجاعة، لتطمئن نفسه صلى الله عليه وآله وسلم بقدومه عليهم، ويظهر صدقهم له في مبايعتهم إيّاه على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم وأنفسهم - .

فعدل بهم ذات اليمين، حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول. فلبث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بني عمرو بن

عوف بضع عشرة ليلة، وَأَسَّسَ المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى، وصلّى فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وروى يونس بن بكير في زيادات المغازي[1]، عن المسعودي، عن الحاكم بن عتبة قال: لمّا قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فنزل بقباء، قال عمار بن ياسر رضي الله عنه: (ما لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بدٌّ من أن نجعل له مكاناً يستظل فيه إذا استيقظ ويصلي فيه) فجمع حجارة فبنى مَسجد قباء. فهو أول مسجد بُني. ـ أي: في الإسلام ـ وهو أول مسجد صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأصحابه جماعة ظاهراً، وأول مسجد بُني لجماعة المسلمين عامة. وإن كان تقدّم بناء غيره من المساجد كبناء أبي بكر الصديق رضي الله عنه مَسجداً بفناء داره.

ثم خرج عليه الصلاة والسلام من قباء يوم الجمعة

---

(١) كما في شرح المواهب.

حين ارتفع النهار فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فصلاّها بمسجدهم بمن كان معه من المسلمين وهم مائة. ولذا سمي: مسجد الجمعة.

وهي أول جمعة صلاّها، وأول خطبة خطبها في الإسلام.

وخطب صلى الله عليه وآله وسلم فقال [1]:

«الحمد لله أحمده، وأستعينه وأستغفره، وأستهديه، وأُومن به ولا أكفره، وأُعادي من يكفره، وأشهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، أَرْسله بالهدى ودين الحق، والنور والموعظة، على فترة من الرسل، وَقلَّةٍ من العلم،

---

(١) قال الحافظ ابن جرير الطبري: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب عن سعيد بن عبد الرحمن الجمحي، أنه بلغه عن خطبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أول جمعة صلاّها بالمدينة في بني سالم بن عوف رضي الله عنهم أنه قال: وذكر هذه الخطبة.

وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمن، ودنوّ من الساعة وقرب من الأجل، وَمَن يُطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وضلّ ضلالاً بعيداً.

وأوصيكم بتقوى الله، فإنه خَير ما أوصى به المسلمُ المسلمَ أن يحضّه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله تعالى﴿ فاحذروا ما حذّركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرى، وإنَّه تقوى لمن عمل به على وَجَل ومخافة، وعون صدق على ما تبتغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله تعالى من أمر السرّ والعلانية ـ ولا ينوي بذلك إلا وجه الله تعالى ـ يكن له ذكراً في عاجل أمره، وذخراً فيما بعد الموت، حين يفتقر المرء إلى ما قدّم، وما كان من سوى ذلك يود ﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

والذي صدق قوله، وأنجز وعده لا خلف لذلك!

فإنه يقول تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩].

واتقوا الله في عاجل أمركم وآجله، في السرّ والعلانية، فإنه من يتق الله يُكفّر عنه سيئاته ويعظم له أجراً، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً.

وإن تقوى الله تقي مقته، وتقي عقوبته، وتقي سخطه. وإن تقوى الله تُبيّض الوجه وترفع الدرجة.

خذوا بحظّكم ولا تفرّطوا في جنب الله، قد علّمكم الله كتابه، ونهج بكم سبيله؛ لِيَعْلَم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين.

فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وسماكم المسلمين. ليهلك مَن هلك عن بيّنة، ويحيى من حيّ عن بينة، ولا قوة إلا بالله، فأكثروا ذكر الله، واعملوا لما بعد الموت، فإنّه من أصلح ما بينه وبين الله **يكْفِه**

الله ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضي على الناس، ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

قال الحافظ ابن كثير: هكذا أوردها ابن جرير وفي السند إرسال. وقال البيهقي: باب أول خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين قدم المدينة. ثم أورد ابن كثير إسناد البيهقي إلى أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما قال: كانت أولُ خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة أن قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «أما بعد أيها الناس فقدّموا لأنفسكم، تعلمنّ والله ليُصعَقن أحدُكم ثم ليدَعنَّ غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فَبلّغك، وآتيتك مالاً، وأفضلت عليك، فما قدمت لنفسك؟

فينظر ـ أي: العبد ـ يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم

ينظر قدّامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشِقٍّ تمرة فليفعل، وَمَنْ لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم[1]، وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته».

ثم خطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرة أخرى فقال:

«إن الحمد لله أحمده، وأستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

إن أحسن الحديث كتاب الله، قد أفلح من زيّنه الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس. إنه أحسن الحديث وأبلغه،

---

(١) هذه الزيادة في سيرة ابن هشام.

أحِبّوا من أَحَبّ الله، أحبّوا الله من كل قلوبكم، ولا تملّوا كلام الله وذكره، ولا تقس عنه قلوبكم، فإنه من يختار الله ويصطفي فقد سمّاه خيرته من الأعمال، وخيرته من العباد، والصالح من الحديث، ومِنْ كل ما أوتي الناس من الحلال والحرام.

فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتقوه حق تقاته، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابّوا بروح الله بينكم، إن الله يغضب أن يُنْكَثَ عهدُهُ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

قال ابن كثير بعد ما أورد ذلك: وهذه الطريق أيضاً مرسلة، إلا أنها مقويّة لما قبلها، وإن اختلفت الألفاظ. اهـ. انظر (البداية والنهاية).

ولقد فرح أهل المدينة بقدومه صلى الله عليه وآله وسلم فرحاً شديداً. روى الإمام البخاري[1] عن البراء

---

(١) في كتاب مناقب الأنصار (٣٩٢٤ و ٣٩٢٥).

ابن عازب رضي الله عنه قال: أول مَنْ قدم علينا مصعب ابن عمير وابن أم مكتوم رضي الله عنهما وكانا يقرئان الناس، فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر، ثم قدم عمر ابن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فَرَحهم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى جعل الإماء يقلن: قَدِمَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم!.

وعن أنس رضي الله عنه قال: (لمّا قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة لعبت الحبشة لقدومه فرحاً بذلك؛ لعبوا بِحِرَابِهِمْ)[1].

وعن أنس رضي الله عنه قال: (لمّا كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة أضاء منها كل شيء)[2].

---

(١) رواه الإمام أبو داود في سننه في كتاب الأدب (٤٩٢٣).

(٢) كما في مسند الإمام أحمد (٣/ ٢٢١)، وسنن الترمذي (٣٦٢٢)وسنن ابن ماجه كتاب ما جاء في الجنائز.

وعن أنس رضي الله عنه ـ وذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال: (شهدته يوم دخل المدينة، فما رأيت يوماً قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)[1].

وصعدت ذوات الخدور على الأجاجير ـ أي: الأسطحة ـ يقلن عند قدومه[2]:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داعِ
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع[3]

---

(١) رواه الإمام الدارمي في سننه في المقدمة (١/٤١)، باب وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والحاكم في (المستدرك) في أول كتاب الهجرة (٣/١٢) والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة.

(٢) رواه البيهقي في (دلائل النبوة)، وأبو بكر المقري في كتاب الشمائل وقال في (فتح الباري): أخرجه أبو سعيد في شرف المصطفى، ورويناه في فوائد الخلعي، وذكره ابن كثير في (البداية والنهاية) وذكره ابن عبد البرقي التمهيد وذكره ابن حبان في السيرة.

(٣) وهذه الزيادة لرزين كما في شرح المواهب.

وقال البراء بن عازب رضي الله عنه: فاشتد الخدم والصبيان في الطريق يقولون: الله أكبر، جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، جاء محمد صلى الله عليه وآله وسلم[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه[2] قال: لَمَّا بركت الناقة على باب أبي أيوب رضي الله عنه خرجت جَوارٍ يضربن بالدفوف يقلن:

نحـن جـوار مـن بـني النجـار

يـا حبـذا محمـد ﷺ مـن جـار

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أَتُحِبِّنْني»؟

قلن: نعم يا رسول الله.

وفي رواية الطبراني في الصغير قال صلى الله عليه وآله

---

(١) رواه الإمام أحمد في أول المسند (١/ ٢).

(٢) كما في (دلائل النبوة) للبيهقي (٢/ ٥٠٨)، و(مستدرك الحاكم (٤/ ٨٠).

وسلم: «الله يعلم أن قلبي يحبكم» أي: يا معشر الأنصار.

وفي رواية قال صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم بارك فيهن»[1].

وكان خروج النساء في استقباله صلى الله عليه وآله وسلم قبل نزول آية الحجاب.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم كلما مرّ على دار من دور الأنصار يدعونه إلى المقام عندهم فيقول: «خلوا سبيلها ـ أي: ناقته ـ فإنها مأمورة»[2] أي: أَمَرَها الله تعالى بالجلوس في مكان معين قد عيّنه الله تعالى لها.

ومن حِكَم ذلك: أن يرتفع العتب من نفوس الأنصار على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن نَزَل عند أحدهم ولم ينزل عند الآخرين.

---

(١) كما في مسند أبي يعلى، من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه (٣٣١٥).

(٢) انظر دلائل البيهقي (٢/ ٥٠٩).

فبركت ناقته موضع المسجد النبوي، وهو يومئذ مِرْبَدٌ، ثم ثارت وهو صلى الله عليه وآله وسلم عليها حتى أتت دار بني النجار فبركت، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «هذا المنزل إن شاء الله تعالى». وفي هذا إيحاءات إلى أن المحيا والممات هناك في المسجد النبوي، وأمّا منزل أبي أيوب رضي الله عنه فأمر مؤقت.

واحتمل أبو أيوب رضي الله عنه رحله صلى الله عليه وآله وسلم وأدخله بيته.

وكانت دار بني النجار أوسط دور بني الأنصار وأفضلها، وهم أخوال عبد المطلب جده صلى الله عليه وآله وسلم. ولذا أكرمهم بنزوله عندهم.

وفي الحديث[1] عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله

---

(١) قال في شرح المواهب: رواه الإمام أبو يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنهما في كتاب الذكر والدعاء. وينظر صحيح الإمام مسلم (٢٠٥٣).

عنه قال: لما نزل عليّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين قدم المدينة، فكنت في العلوّ، فلمّا خلوت إلى أم أيوب قلت لها: رسول الله أحقّ بالعلوّ منّا، تنزل عليه الملائكة، وينزل عليه الوحي. فما بتُّ تلك الليلة لا أنا ولا أم أيوب، فلما أصبحت قلت: يا رسول الله ما بتُّ تلك الليلة أنا ولا أم أيوب.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لِمَ يا أبا أيوب»؟

قلت: كنتَ أحق بالعلوّ منا، تنزل عليك الملائكة وينزل عليك الوحي. لا والذي بعثك بالحق لا أعلو سقيفة أنت تحتها أبداً.

وفي رواية: فلم يزل أبو أيوب رضي الله عنه يتضرع إليه صلى الله عليه وآله وسلم حتى تحول إلى العلو، وأبو أيوب في الأسفل[1].

قال أبو أيوب رضي الله عنه: وكنّا نصنع له العشاء

(١) كما في السيرة الشامية (٣/٣٩٢).

ثم نبعث به إليه، فإذا ردّ علينا فضله تيمّمت أنا وأم أيوب موضع يده صلى الله عليه وآله وسلم نبتغي بذلك البركة. حتى بعثنا إليه بعشائه وقد جعلنا فيه بصلاً أو ثوماً فردّه ولم أجد ليده فيه أثراً، فجئته فزعاً قال: «إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة، وأنا رجل أُناجي، فأما أنتم فكلوه» فأكلناه ولم نصنع له تلك الشجرة بعد.[٣]

وفي صحيح مسلم[١] أن أبا أيوب رضي الله عنه فزع وصعد إليه صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أحرام هو؟

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا. ولكني أكرهه».

قال: فإني أكره ما تكره أو ما كرهت. وامتنع عن أكل الثوم والبصل طوال حياته، تأدباً مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم أمر صلى الله عليه وآله وسلم[٢] ببناء المسجد

---

(١) (٢٠٥٣).

(٢) انظر السيرة الشامية (٣/ ٤٨٥).

(٣)عزاه في شرح المواهب لابن إسحاق في سيرته.

موضع بروك الناقة. وهو يومئذ مِربد أي: موضع يجفّف فيه التمر.

فصفّوا النخل قبلة له ـ أي: جعلت سواري له في جهة القبلة ـ فسقف عليها، وجعلوا عضادتيه حجارة، وطفق صلى الله عليه وآله وسلم ينقل اللَّبِن ـ أي: الحجارة ـ معهم ويقول:

اللــــهم إن الأجــر أجــر الآخــرة

فـــارحم الأنصـــار والمهـــاجرة

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين





المحاضرة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد كان لهجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة أهمية كبيرة في تاريخ الإسلام، كما أنَّ في هذه الهجرة عِبَراً وفوائد لجميع أمته صلى الله عليه وآله وسلم إلى يوم الدين.

أما تخصيص شهر مُحرم بأنه أول السنة الهجرية فهو أمر اتفق عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك أيام خلافة سيدنا عمر رضي الله عنه.

قال الحافظ ابن حجر[1]: وذكروا في سبب عمل عمر رضي الله عنه التاريخ أشياء منها: ما أخرجه أبو نعيم الفضل بن دُكَين في تاريخه، ومن طريقه الحاكم من طريق الشعبي: أنَّ أبا موسى رضي الله عنه كتب إلى عمر رضي الله عنه: إنه يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ.

فجمع عمر رضي الله عنه الناس، فقال بعضهم: أرّخ بالمبعث ـ أي: لنجعل مبدأ التاريخ الإسلامي من مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ وقال بعضهم. أرّخ بالهجرة. فقال عمر رضي الله عنه: الهجرة فرّقت بين الحق والباطل، فأرّخوا بها، وذلك سنة سبع عشرة.

فلما اتفقوا قال بعضهم: ابدؤوا برمضان، فقال عمر: بل المحرم، فإنه منصرف الناس من حجّهم. فاتفقوا عليه.

وروى أحمد، وأبو عروبة في «الأوائل» والبخاري

---

(١) في فتح الباري (٧/ ٢٦٨) وانظر مصنف ابن أبي شيبة كتاب التاريخ.

في «الأدب» والحاكم من طريق ميمون بن مهران قال: رُفِع لعمر رضي الله عنه صَكٌّ محله شعبان، فقال: أيّ شعبان؟ الماضي أو الذي نحن فيه، أو الآتي؟

ضعوا للناس شيئاً يعرفونه. فذكر نحو الأول[1].

وقال السيوطي في الدر المنثور[2]: وأخرج ابن عساكر[3] عن عبد العزيز بن عمران قال: لم يزل للناس تاريخ، كانوا يؤرخون في الدهر الأول من هبوط آدم من الجنة. فلم يزل كذلك حتى بَعث الله نوحاً، فأرّخوا من دعاء نوح على قومه، ثم أرّخوا من الطوفان، ثم أرّخوا من نار إبراهيم، ثم أرّخ بنو إسماعيل من بنيان الكعبة، ثم أرّخوا من موت كعب بن لؤي، ثم أرّخوا

---

(١) كما في فتح الباري، كتاب مناقب الأنصار (٧/ ٢٦٨).

(٢) عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾.

(٣) في أول كتابه تاريخ دمشق.

من عام الفيل، ثم أرّخ المسلمون بعد مِن هجرة الرسول صلى الله عليهِ وآله وسلم.

وذلك لما في الهجرة من الخصائص والفضائل، وفيها ارتفعت كلمة الإسلام، وانتشر دين الله في الأرض، ولذلك حُقّ أن يكون مبدأ الهجرة الشريفة هو مبدأ التاريخ الإسلامي.

وذلك حتى تتذكر هذه الأمة كلها فضائل تلك الهجرة ووقائعها، وآثارها التي تركتها إلى يوم القيامة.

وتنطوي في ذلك فضائل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وسيرته ومعجزاته، وخوارق العادات التي جرت على يديه صلى الله عليه وآله وسلم، ويظهر في ذلك أمر شريعته صلى الله عليه وآله وسلم.

فجميع ذلك منطوٍ تحت هجرته صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إلى المدينة المنورة.

ولقد بدأت هجرة الصحابة رضي الله عنهم إلى المدينة من أول شهر محرم، بعد رجوع الأنصار الذين

بايعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند العقبات الثلاث إلى ديارهم، وانقضاء موسم الحج. وهذا ممّا يناسب أن يكون شهر محرّم هو مبدأ التاريخ، لأن فيه بدء الهجرة، ونهاية الموسم الذي اتفق عليه الأنصار رضوان الله عليهم.

أما أسباب الهجرة والحِكَم من ورائها فهي كثيرة:

منها: ما لقيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من إيذاء كفار قريش في مكة، وكان المسلمون يَشكون أمرهم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فكان صلى الله عليه وآله وسلم تنزل عليه البشائر الإلٓهية، فيبشّرهم بالفرج والنصر، والفتح والعزة والكرامة. فَمن ذلك ما بشّرهم به صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهو في مكة ـ إذ قال: «إن الله تعالى زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها»[1].

---

(١) تقدم تخريجه ص (١١).

أي: إن هذا الدين سينتشر في مشارق الأرض ومغاربها.

ومن جملة بشائره صلى الله عليه وآله وسلم ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا إن الإيمان يمان، والحكمة يمانية، وأجد نَفس ربكم من قِبَل اليمن»[1].

أي: إن تنفيسه سبحانه وتفريجه عن المسلمين في مكة إنما يكون من قِبَل اليمن. أما عن تحقيق هذه البشائر[2] فلم تمض مدة إلا جاء موسم الحج، ، وخرج صلى الله عليه وآله وسلم في الموسم لنشر دعوته إلى الله تعالى، فرأى عند العقبة جماعة من الخزرج أراد الله بهم خيراً، فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإسلام، وتلا عليهم آيات من القرآن الكريم.

---

(١) تقدم تخريجه ص (١١).

(٢) كما في السيرة الشامية (٣/ ٢٦٧).

وكان من جملة سكان المدينة وقتئذ جماعات من اليهود، فكانوا إذا حصل بينهم وبين الأوس والخزرج شيء قالوا: إن نبياً سيبعث الآن، قد أظل زمانه، نتّبعه فنقتلكم معه قتل عادٍ وإرم، وفي هذا قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩].

فلما كلّمهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ودعاهم إلى الله عز وجل، أيقنوا به، واطمأنت قلوبهم إلى ما سمعوا منه، وعرفوا ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب من صفته الكريمة صلى الله عليه وآله وسلم، فقال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون والله إنه للنبي الذي تُوعدكم به اليهود، فلا تسبقنكم إليه.

فصدّقوه وآمنوا به صلى الله عليه وآله وسلم وقبلوا منه ما عَرض عليهم من الإسلام. وسَرى روح القرآن

الكريم في قلوبهم، وشهدوا أن محمداً رسول الله ﷺ.

وقالوا: قد عَلِمْتَ الذي بيننا من الاختلاف وسفك الدماء، ونحن حِراصٌ على ما أرسلك الله به، مجتهدون لك بالنصيحة، وإنا لنشيد عليك برأينا، فامكث على رسلك باسم الله حتى نرجع إلى قومنا، فنذكرَ لهم شأنك، وندعوهم إلى الله ورسوله، فلعل الله يصلح ذات بينهم، ويجمع لهم أمرهم، فإنّا اليوم متباغضون متباعدون، ولكنا نواعدك الموسم من العام المقبل.

فرضي بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وانصرفوا راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا.

والأوس والخزرج قبيلتان كانتا تسكنان المدينة، وأصلهما من اليمن، وسمّوا بعد ذلك بـ **(الأنصار)**، بتسمية الله تعالى لهم في كتابه سبحانه، لأنهم نصروا الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فكانوا أنصار الله على الحقيقة بشهادة رب العالمين، إذ سمّاهم بذلك في القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ

﴿مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٨].

فَلَمَّا كان العام المقبل خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في موسم الحج، وجاء اثنا عشر رجلاً من الأنصار، فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمَنْشط والمكره، وألا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصوا في معروف. كما تقدم[1] في حديث سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

ثم قَدِمَ على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في العام المقبل في ذي الحجة سبعون رجلاً وامرأتان من الأنصار وهي: العقبة الثالثة[2].

---

(١) ينظر: ص (١٥ـ ١٦).

(٢) تقدم تخريجه ص (٢٠)

وقالوا له صلى الله عليه وآله وسلم: سل يا محمد لربك ما شئت، ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئت، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله عز وجل وعليكم إذا فعلنا ذلك؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أسأل لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأسألكم لنفسي ولأصحابي أن تُؤووونا، وتنصرونا، وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم».

قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لكم الجنة».

قالوا: فلك ذلك.

فلما صدروا من عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طابت نفسه صلى الله عليه وآله وسلم، وقد جعل الله له منعة، وقوماً أهل حرب ونجدة. وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى، فشكوا أمرهم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال لهم: «قد أُرِيْتُ دار

هجرتكم، رأيت سبخة ذات نخل بين لابتين»[1].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وَهَلي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب»[2].

وأَذِن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للصحابة بالهجرة إلى المدينة المنورة، فجعلوا يتجهزون ويتواسَون، ويُخفون ذلك خوفاً من كفار قريش، إلا سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإنه لمّا همّ بالهجرة تقلّد سيفه، وتنكّب قوسه، وانتضى في يده أسهماً، (واختصر عَنَزَته) ـ والعنزة هي مثل نصف الرمح أو أكبر شيئاً، وفيها سنان مثل سنان الرمح. ومعنى (اختصر عنزته) أي: حملها مضمومة إلى خاصرته ـ ومضى قِبَل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف

---

(١) تقدم تخريجه ص (٢٦).

(٢) رواه الإمام البخاري في كتاب المناقب (٣٦٢٢)، ومسلم في كتاب الرؤيا (٢٢٧٢).

بالبيت سبعاً، ثم أتى المقام فصلّى ركعتين، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة وقال لهم: شاهت الوجوه، لا يُرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن يُثكِل أمه، أو يؤتِم ولده، أو يرمِل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي. فلم يتبعه أحد إلا قوم من المستضعفين، علّمهم ما أرشدهم إليه ثم مضى لوجهه[1].

ولما استأذن[2] أبو بكر رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الهجرة قال له صلى الله عليه وآله وسلم: «على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي».

فقال أبو بكر: أوَ ترجوه بأبي أنت؟

قال: «نعم».

فحبس أبو بكر رضي الله عنه نفسه على النبي صلى الله عليه وآله وسلم لصحبته، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السّمر أربعة أشهر.

---

(١) تقدم تخريجه ص (٢٨).

(٢) تقدم تخرجه ص (٢٩).

وفي رواية أن أبا بكر رضي الله عنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الهجرة فقال: «لا تُعْجَلْ، لعل الله يجعل لك صاحباً» فطمع أبو بكر أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعني نفسه، وكان أبو بكر رضي الله عنه قد أعدّ لذلك راحلتين يعلفهما في داره[1].

وقد انتظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الإذن من الله تعالى بالهجرة. أي: إذناً خاصاً به صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه رسول الله، وجميع أعماله وحركاته إنما هي مَنُوْطَةٌ بالوحي الإلّهي.

وبعد مدة أذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالهجرة، ونزل قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

---

(١) عزاه في مجمع الزوائد (٦/ ٦٢) للطبراني.

أما قريش[1] فلما رأت أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد كانت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً، وأصابوا جواراً ومَنَعة، فحذروا خروج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة ـ وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلاّ فيها ـ يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين خافوه، فاجتمعوا لذلك واتّعدوا، وكان ذلك اليوم يُسمّى يوم الزحمة، فاعترضهم إبليس ـ لعنه الله ـ في هيئة شيخ مسنّ، عليه بَتٌّ له ـ والبتّ هو الكساء الغليظ المربّع ـ فوقف على باب الدار، فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا: مَنِ الشيخ؟

(١) كما في سيرة ابن هشام والسيرة الشامية ٣/٣٢٤.

قال: شيخ من أهل نجد ذكر قول السهيلي بعد نهاية كلام ابليس[1]: إنما قال لهم إبليس: إنه من أهل نجد لأنهم قالوا: لا يدخلن معكم في المشاورة أحد من أهل تِهامة، لأنَّ هواهم مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فلذلك تمثّل لهم في صورة شيخ نجدي ـ سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى ألا تعدموا منه رأياً ولا نصحاً.

قالوا: أجل فادخل. فدخل معهم، وقد اجتمع فيها أشراف قريش وغيرها.

فقال بعضهم لبعض: إنَّ هذا الرجل قد كان من أمره ما رأيتم، وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا، فَأجمعوا فيه رأياً.

قال: فتشاوروا. ثم قال أبو البختري بن هشام: احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما

---

(١) انظر الروض الأنف (٢/ ٢٢٩).

أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله: زهيراً والنابغة، وَمَنْ مضى منهم من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم.

فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، والله لو حبستموه كما تقولون، ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم. ما هذا لكم برأي فانظروا في غيره.

فتشاوروا، ثم قال أبو الأسود ربيعة بن عمرو: نخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلادنا، فإذا خرج عنا فوالله ما نُبالي أين ذهب ولا حيث وقع، إذا غاب عنا وفرغنا منه، فأصلحنا أمرنا وأُلْفَتَنا.

فقال الشيخ النجدي: لا والله، ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطِقَهُ، وغَلَبَتَهُ على قلوب الرجال بما يأتي به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم

أنَ يحلّ على حيّ من العرب، فيغلب عليهم بذلك مِن قوله وحديثه؛ حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد. دبّروا فيه رأياً غير هذا !!

فقال أبو جهل بن هشام: والله إنّ لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد.

قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟

قال: أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتىً شاباً جلداً نسيباً وسيطاً، ثم نُعطي كل فتىً منهم سيفاً صارماً، ثم يَعمدوا إليه بأجمعهم، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إنْ فعلوا ذلك تفرّق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدرْ بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعَقْل، فعقلناه لهم. أي: دفعنا لهم ديته.

فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأيُ لا أرى غيره.

وتفرّق القوم على ذلك، وهم مُجمعون له.

فأتى جبريلُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: لا تَبِتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه. وأخبره بمكر القوم، وإذن الله تعالى له بالخروج.

فلما كانت العتمة من الليل اجتمعوا على بابه صلى الله عليه وآله وسلم يرصدونه. فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك قال لعلي بن أبي طالب: «نم على فراشي، وتسجّ ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فنم فيه، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم» وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينام في برده ذلك إذا نام.

فلما اجتمعوا قال أبو جهل بن هشام: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بُعثتم من بعد موتكم، فجُعِلت لكم جنان كجِنان الأردن، وإنْ أنتم لم تفعلوا كان فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم نار تُحرَقون فيها.

فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأخذ حفنة من تراب في يده ثم قال: «نعم أنا أقول ذلك، وأنت أحدهم» وأخذ الله عز وجل على أبصارهم عنه فلا يرونه.

فجعل صلى الله عليه وآله وسلم يذري ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١ ـ ٩].

فلم يبق منهم رجلٌ إلا وقد وضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على رأسه تراباً، ثم انصرف صلى الله عليه وآله وسلم إلى حيث أراد أن يذهب.

فأتاهم آتٍ ممّن لم يكن معهم فقال: ما تنتظرون ههنا؟ قالوا: محمداً.

قال: خيّبكم الله !! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً، وانطلقَ لحاجته، أفما ترون ما بكم؟

قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب.

ثم جعلوا يتطلعون فيرون علياً على الفراش، متسجّياً ببردِ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيقولون: والله إنّ هذا لمحمد نائماً، عليه برده، فلم يزالوا كذلك حتى أصبحوا. فقام عليّ رضي الله عنه من الفراش، فقالوا: والله لقد صدقنا الذي كان حدثنا.

وخرج صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر رضي الله عنه إلى غار ثور.

ولما فقدت قريش أثر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طلبوه بمكة أعلاها وأسفلها، وبعثوا القافة

في أثره في كل وجه، فوجد الذي ذهب قِبَل ثور أثره هناك، فلم يزل يتبعه حتى انقطع الأثر لما انتهى إلى غار ثور. ولما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر رضي الله عنه الغار أنبت الله على بابه شجرة فحجبت عن الغار أعين الكفار، وأمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار، وأرسل حمامتين وحشيتين فوقفتا على فم الغار.

وجاء المشركون وجعل بعضهم ينظر في الغار فرأى حمامتين وحشيتين بفم الغار، فرجع إلى أصحابه، فقالوا له: ما لك؟

فقال: رأيت حمامتين وحشيتين فعرفت أنه ليس فيه أحد[1].

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

---

(١) تقدّم تخريجه ص (٤١).

فهو سبحانه يُجنّد العنكبوت ـ أي: يقويّها ويمدّها ـ إذا أراد تجنيدها فيعجز عن مقاومتها أهل العتاد الثقيل. ولمّا يجنّد سبحانه البعوض إذا بها تُعجز الخليقة.

لأن له سبحانه جنود السماوات والأرض. أي: أن السماوات والأرض وَمَنْ فيهما هي من جملة جنود رب العالمين، وله جنود لا يعلمها إلا هو، وتجنيد الشيء: تقويته، حتى يكون للدفاع والقوة والغلبة، ولقد جنّد سبحانه البعوض، فأهلكت نمرود حيث دخلت في منخره، فمكث زمناً طويلاً يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه، وكان جباراً أربع مئة سنة، فعذبه الله مدة طويلة، ثم أماته الله تعالى[1].

وجنّد الله تعالى الطير الأبابيل فأهلكت جيوش أبرهة لمّا أراد هدم الكعبة.

---

(١) انظر تفسير الطبري (٣/ ٢٥) وتفسير ابن كثير ٢/٥٦٧ .

وجنّد سبحانه العنكبوت والحمائم والشجرة على باب الغار، حتى أيقن المشركون أن هذا الغار لم يدخله أحد. واستبعدوا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر رضي الله عنه داخله.

ونظر سيدنا أبو بكر رضي الله عنه فرأى أقدام المشركين فقال: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»؟[1].

وذكر بعض أهل السير: أن أبا بكر رضي الله عنه لما قال ذلك قال له صلى الله عليه وآله وسلم: «لو جاؤونا من ههنا لذهبنا من ههنا» فنظر الصدّيق فرأى الغار قد انفرج من الجانب الآخر، وإذا البحر قد اتصل به، ورأى سفينة مشدودة إلى جانبه[2].

---

(١) تقدم تخريجه ص (٤٣).

(٢) تقدم ص (٤٤).

ولا يبعد ذلك عن معجزات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذ أن الله تعالى الذي نجّى موسى من فرعون وجنوده، وشقّ لهم طريقاً في البحر، لا يعجزه سبحانه أن ينجّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويشق له البحر؛ إذا اقتضى الأمر ذلك.

وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ فإن الله تعالى ناصره دائماً وأبداً ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أي: بالمعية الخاصة التي تقتضي التأييد والحفظ والنصر.

وهذه المعية أكبر وأعظم من معية الله تعالى لموسى عليه السلام لمّا لحقه فرعون، فقال موسى كما أخبر سبحانه: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ يدل على أن المعيّة الإلّهية قد عمّت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من جميع

جهاته، حتى شملت مَنْ مَعَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو أبو بكر رضي الله عنه، فتعدّت المعية منه صلى الله عليه وآله وسلم إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ثم إن موسى عليه السلام قال كما أخبر سبحانه: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أي: معي خاصة وباسم الربوبية.

أما الحبيب الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ فذكر الاسم الأعظم، وهو الاسم الجامع لجميع حضرات الأسماء الإلٓهية، فلما قال صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أي: معنا بأسمائه تعالى كلها.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ أي: على أبي بكر رضي الله عنه، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم تزل السكينة معه[1].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مَرْدُوْيَه، والبيهقي وابن عساكر.

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها[1]: ثم لحق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر بغارٍ في جبل ثور، فكمنا فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبد الله ابن أبي بكر، وهو غلام شاب ثَقِف لقن ـ أي: حاذق سريع الفهم ـ.

فيدلج من عندهما بسحر ـ أي: يخرج بسحر إلى مكة ـ فيصبح مع قريش بمكة كبائتٍ؛ فلا يسمع أمراً يُكتادان به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام.

ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنهما مَنحة من غنم ـ أي: شاة تحلب إناءً بالغداة وإناء بالعشي ـ فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العِشاء، فيبيتان في رِسلٍ ـ أي: لبن طريّ ـ وهو لبن

---

(١) كما في صحيح البخاري، في كتاب مناقب الأنصار (٣٩٠٥) في حديث طويل.

منحتهما ورضيفهما ـ والرضيف هو لبن وضعت فيه حجارة محمّاة بالشمس أو النار لينعقد وتزول رخاوته ـ حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس ـ أي: يصيح بغنمه ـ يفعل ذلك في كل ليلة مِنْ تلك الليالي الثلاث.

واستأجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر رضي الله عنه رجلاً من بني الدِّيل ـ وهو عبد الله ابن أريقط ـ وهو من بني عبد بن عدي، هادياً خرّيتاً ـ والخرّيت الماهر بالهداية ـ قد غمس حِلفاً في آل العاص بن وائل السهمي ـ أي: كان حليفاً لهم ـ وهو على دين كفار قريش، فأمِناه، فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة رضي الله عنه والدليل، فأخذ بهم طريق السواحل.

وروى البيهقي وغيره[1] أن رسول الله صلى الله

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٤٩٢)، ومستدرك الحاكم وصحيحه (٣/٩)، ومجمع الزوائد (٦/ ٥٥) وابن عبد البر وابن شاهين وابن السكن.

عليه وآله وسلم ليلة هاجر من مكة إلى المدينة هو وأبو بكر الصديق وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، ودليلهم عبد الله بن أريقط الليثي، مروا بخيمة أمّ معبد عاتكة بنت خالد الخزاعية ـ وكانت أم معبد امرأة برزة[1] جلدة. أي: قوية ـ تحتبي وتجلس بفناء الخيمة، فتطعم وتسقي من يمّر بها، فسألوها هل عندها لحم أو لبن يشترونه منها؟

فلم يجدوا عندها شيئاً من ذلك، وقالت: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزناكم القِرى ـ أي: ما أحوجناكم بل كنا نضيفكم ـ وإن القوم مُرملون مسنتون[2]. فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا شاة في كِسر ـ أي: جانب ـ خيمتها

فقال: «ما هذه الشاة يا أم معبد» ؟

---

(١) عفيفة جليلة مسنّة.

(٢) أي: أصابتهم السنة الجدباء.

قالت: شاة خلّفها الجهد[1] عن الغنم.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أتأذنين لي أن أحلبها» ؟

فقالت: إن كان بها حَلْبٌ فاحلبها.

وفي رواية[2]: قالت: نعم. بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حلباً فاحلبها.

فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالشاة فمسحها، وذكر اسم الله، ومسح ضرعها ـ وفي رواية[3]: ظهرها ـ وذكر اسم الله، ودعا بإناء يُريض الرهط ـ أي: يشبع الجماعة حتى يريضوا[4] ـ وتفاجّت[5]، واجترّت.

---

(١) أي: منعها الهزال عن لحوق الغنم للمرعى.

(٢) عند الحاكم في المستدرك (٣/ ٩)، وعزاه في مجمع الزوائد (٦/ ٥٧) إلى الطبراني.

(٣) عزاه في مجمع الزوائد (٨/ ٢٧٨) إلى الطبراني.

(٤) أي: حتى يرووا من اللبن ويثقلوا فيناموا.

(٥) أي: فتحت ما بين رجليها.

وفي رواية[1]: ودرّت. فحلب فيه ثجاً[2] حتى ملأه.

فسقى أم معبد وسقى أصحابه، فشربوا عَلَلاً بعد نَهَل[3]، حتى إذا رووا شرب صلى الله عليه وآله وسلم آخرهم وقال: «ساقي القوم آخرهم شرباً».

ثم حلب فيه صلى الله عليه وآله وسلم ثانياً عوداً على بدء، فغادره ـ أي: تركه ـ عندها. ـ وفي رواية: قال لها صلى الله عليه وآله وسلم: «ارفعي هذا لأبي معبد إذا جاءك» ـ ثم ارتحلوا.

فقلّما ليث ـ أي: ما لبث إلا قليلاً ـ أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً يتساوكن هزلاً، مخّهن قليل[4]، فلّما رأى اللبن عجب وقال: من أين هذا اللبن يا أم معبد ولا حلوب في البيت، والشاء عازب[5] ؟!

---

(١) عند الطبراني مجمع الزوائد (٦/ ٥٦).

(٢) الثجّ: هو السيلان.

(٣) النهل: أول الشرب، والعلل متابعة الشرب.

(٤) المخ: هو الودك الذي في العظم.

(٥) أي: بعيدة عن المرعى.

فقالت: لا والله. إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك، كان من حديثه كذا وكذا ـ وفي رواية: كيت وكيت ـ[1].

فقال: صفيه لي يا أم معبد.

فقالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة، حسن الخَلق، مليح الوجه، لم تَعِبه ثجلة[2]، ولم تُزْرِ به صعلة[3]، قسيم وسيم[4]، في عينيه دعج[5]، وفي أشفاره وَطَف[6]، وفي صوته صَحَل[7]، أحور[8]، أكحل[9]،

---

(١) عند ابن سعد في الطبقات (١/ ٢٣٠).

(٢) الثجلة: بفتح الثاء وسكون الجيم: عِظَم البطن.

(٣) الصعلة: بفتح الصاد وسكون العين: صغر الرأس.

(٤) صفتان تدلان على الحسن.

(٥) الدعج: شدة سواد حدقة العين.

(٦) الوطف: بفتح الطاء: كثرة شعر الحاجبين والعينين.

(٧) الصحل: بفتح الصاد والحاء: هو كالبحّة في الصوت.

(٨) الحور: أن يشتد بياض بياض العين، وسواد سوادها، وهو المحمود المحبوب.

(٩) الكحل: بفتحتين: سواد في أجفان العين خِلْقة.

أزج[1]، أقرن[2].

في عنقه سطع[3]، وفي لحيته كثاثة، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، حُلْوُ المنطق، كلامه فصل، لا نزر[4] ولا هذر[5]، كأن منطقه خرزات نظم يَتَحَدَّرْن، أبهى الناس وأجمله من بعيد وأحسنه من قريب، ربعة، لا تَشْنَؤُهُ[6] عين من طول،

---

(١) الأزج: هو دقيق طرف الحاجبين.

(٢) الأقرن: هو مقرون الحاجبين، ولكن هذا مخالف لحديث هند بن أبي هالة وفيه: أنه أزج الحواجب سوابغ من غير قَرن. وهو المشهور. وقد يجاب عن هذا: بأن بين الحاجبين الشريفين شعراً خفيفاً يظهر إذا وقع عليه غبار السفر، وحديث أم معبد كان في حال السفر. اهـ. ملخصاً من المواهب.

(٣) أي: ارتفاع وطول.

(٤) النزر: بسكون الزاي: هو القليل.

(٥) الهذر: بفتح الذال: الكثير.

(٦) أي: لا يبغض لفرط طوله، والمراد: ليس فيه طول مبغوض إلى النفوس.

ولا تقتحمه[1] عين من قِصَر، غُصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفّون به، إن قال استمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا لأمره، محفود محشود[2]، لا عابس ولا مفنّد[3].

فقال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش الذي تطلب، ولو صادفته لالتمستُ أن أصحبه. ـ وفي رواية: لو رأيته لاتبعته ـ ولأجهدن إنْ وجدت إلى ذلك سبيلاً، ثم هاجرت مع زوجها إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأسلما[4].

وروى ابن سعد وأبو نعيم عن أم معبد قالت: «بقيت الشاة التي لَمَس رسول الله ضرعها عندنا حتى

---

(١) أي: لا تتجاوزه إلى غيره.

(٢) محفود: أي: مخدوم، والمحشود: الذي عنده حشد وهم الجماعة.

(٣) المفند: الذي يكثر اللوم.

(٤) انظر شرح المواهب وتاريخ ابن كثير.

كان زمان الرمادة ـ وهي سنة ثماني عشرة من الهجرة ـ زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكنا نحلبها صبوحاً وغبوقاً وما في الأرض قليل ولا كثير[1] ـ والصبوح: الشُّرب بالغداة، والغَبوق الشرب بالعَشِيّ ـ.

وقال هشام بن حبيش: أنا رأيت الشاة وإنها لتأدم أم معبد وجميع صِرمتها. أي: أهل ذلك الماء.

قالت السيدة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: ولمّا لم ندر أين توجّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أتى رجل من الجن، وإن الناس ليسمعون صوته ولا يرونه، وهو ينشد هذه الأبيات:

جزى الله رب الناس خير جزائه
رفيقين حلاّ خيمتي أم معبد

هما نزلا بالبرّ ثم ترحّلا
فأفلح من أمسىٰ رفيق محمد ﷺ

---

(١) كذا في المواهب وشرحها.

سلوا أختكم عن شاتها وإنائها

فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد

أي: تشهد بأن محمداً رسول الله ﷺ.

ومرّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم[1] وأبو بكر بعبد يرعى غنماً، فاستسقياه اللبن، فقال: ما عندي شاة تُحلَب، غير أن هَهنا عَناقاً ـ وهي الأنثى من ولد المعز قبل استكمال الحول ـ حملت عام أول، وما بقي لها لبن، فقال: ادع بها، فاعتقلها صلى الله عليه وآله وسلم ومسح ضرعها ودعا، حتى أنزلت ـ أي: اللبن ـ وجاء أبو بكر رضي الله عنه بِمِجَنٍّ ـ أي: ترس ـ فحلب فسقى أبا بكر رضي الله عنه، ثم حلب فسقى صلى الله عليه وآله وسلم الراعي، ثم حلب فشرب، فقال الراعي: بالله من أنت؟ فوالله ما رأيت مثلك قط. قال: «أَوَ تراك تكتم عليّ حتى أخبرك» ؟ قال: نعم، قال: «فإني محمد رسول الله». قال: أنت الذي تزعم قريش أنه صابئ ؟!

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٤٩٧).

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنهم ليقولون ذلك» ـ أي: وهم كاذبون ـ، قال: فأشهد أنك نبي، وأن ما جئت به حق، وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبيّ، وأنا متّبعك، قال: «إنك لن تستطيع ذلك يومك، فإذا بلغَكَ أني قد ظهرتُ فأتِنا».

وكان أبو بكر رضي الله عنه يمشي بين يدي النبي ﷺ ساعة، ومن خلفه ساعة، فسأله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أذكر الطلَب فأمشي خلفك، وأذكر الرصد فأمشي أمامك.[1]

وفي الطريق لحقهما سراقة بن مالك بن جعشم طمعاً في جائزة قريش.

قال ابن شهاب[2]: أخبرني عبد الرحمن بن مالك المدلجي ـ وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جعشم ـ أنّ أباه أخبره، أنه سمع سراقة بن جعشم يقول: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله صلى الله عليه

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي.

(٢) كما في صحيح البخاري كتاب مناقب الأنصار (٣٩٠٦).

وآله وسلم وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج، إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال: يا سراقة إنِّي قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل، أراها محمداً وأصحابه

قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا. ثم لبثتُ في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت، فأمرت جاريتي أنْ تَخرج بفرسي ـ وهي من وراء أكمة[1] ـ فتحبسها عليّ، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت، فخططت[2] بزجّه[3] الأرض وخفضت عاليه[4]، حتى

(١) الأكمة: المكان المرتفع كالرابية.
(٢) أي: أمكنتُ أسفله.
(٣) الزج: بضم الزاي: الحديدة التي في أسفل الرمح.
(٤) أي: أمسكه بيده وجرّ زجّه على الأرض فخطها به لئلا يظهر بريقه لمن بَعُد منه، لأنه كره أن يتبعه منهم أحد، فيشركوه في الجعالة. اهـ من فتح الباري.

أتيت فرسي فركبتها، فرفعتها[١] تقرّب[٢] بي، حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي، فخررت عنها، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي ـ وَهَي الخريطة المستطيلة ـ فاستخرجت منها الأزلام[٣] فاستقسمت بها: أضرّهم أم لا؟ فخرج الذي أكره ـ أي: لا تضرهم ـ.

فركبت فرسي ـ وعصيت الأزلام ـ تقرّب بي، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات ـ وفي حديث البراء[٤]: فدعا عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ ساخت يدا فرسي في الأرض، حتى بلغتا الركبتين ـ وفي رواية البراء: فارتطمت به فرسه إلى بطنها[٥] ـ.

---

(١) قوله: فرفعتها أي: أسرعت بها السير.

(٢) التقريب هو: السير دون العَدْوِ وفوق العادة.

(٣) هي الأقداح وهي السهام التي لا ريش لها ولا نصل.

(٤) عند البخاري (٣٩٠٨).

(٥) عند البخاري (٣٦١٥).

فخررْتُ عنها، ثم زجرتُها فنهضَتْ، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عُثان[١] ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره فناديتهم بالأمان، فوقفوا. وفي رواية أبي خليفة[٢]: قال سراقة: قد علمت يا محمد أن هذا عملك، فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه، والله لأعمين عليك مَنْ ورائي. أي: الطلب

وفي رواية ابن إسحاق[٣]: فناديت القوم: أنا سراقة ابن مالك بن جعشم، أنظروني أكلمكم، فوالله لا آتيكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه.

قال: فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيتُ ما لقيتُ من الحبس عنهم أنْ سيظهر أمرُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقلت له: إنّ

---

(١) العثان: هو الدخان من غير نار. وقيل الغبار.

(٢) انظر فتح الباري (٧/ ٢٤٢).

(٣) تنظر سيرة ابن هشام.

قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم ـ أي: من الحرص على الظفر بهم، وبذل المال لمن يُحصلهم ـ وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني ـ أي: لم ينقصاني مما معي شيئاً ـ.

وفي رواية أبي خليفة: وهذه كنانتي فخذ سهماً منها، فإنك تمرّ على إبلي وغنمي بمكان كذا وكذا فخذ منها حاجتك.

فقال لي: «لا حاجة لنا في إبلك» ودعا له صلى الله عليه وآله وسلم.

قال: ولم يسألاني إلا أن قال: «أخفِ عنا».

وفي رواية البراء: فدعا صلى الله عليه وآله وسلم له فنجا، فجعل لا يلقى أحداً إلا قال له: قد كُفيتم ما هٰهنا. فلا يلقى أحداً إلا ردّه.

وفي حديث أنس رضي الله عنه: فقال: يا نبي الله مرني بما شئت.

قال: «تقف مكانك، لا تتركن أحداً يلحق بنا».

قال: فكان أول النهار جاهداً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان آخر النهار مسلحة له[1] أي: حارساً له بسلاحه.

قال: فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أدم. ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي رواية[2]: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لسراقة بن مالك: كيف بك إذا لبست سواري كسرى ومنطقته وتاجه ؟! فلما أُتِي عمر رضي الله عنه بسواري كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة بن مالك وألبسه إياهما وقال له: ارفع يديك وقل:الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهم كسرى بن هرمز الذي كان يقول: أنا ربّ الناس، وألبسهما سراقة، رجلاً أعرابياً من بني

(١) صحيح البخاري (٣٩١١).

(٢) انظر شرح المواهب للزرقاني، والروض الأنف للسهيلي، وأسد الغابة، والإصابة، وسنن البيهقي الكبرى، وغيرها.

مُدلج، ورفع عمر رضي الله عنه صوته، ثم قسّم ذلك على المسلمين.

قال ابن إسحاق[1]: ولما بلغ أبا جهل ما لقي سراقة ولامه في تركهم أنشده:

أبا حكم والله لـو كنـت شـاهداً

لأمـر جـوادي إذ تسـيخ قوائمـه

عجبتَ ولم تشكك بأن محمـداً

نـبيّ وبرهـان فمـن ذا يكاتمـه

ولقد اختار الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة لتكون مُهاجَره ومعقِله وسكناه، وقد سمّاها المدينة، كما جاء ذكرها في القرآن الكريم: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]. وإذا أُطلِق لفظ المدينة حُمِل

---

(١) كما في شرح المواهب للحافظ الزرقاني.

على مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنها مدينة المدائن، وقد عمرها أشرف خلق الله صلى الله عليه وآله وسلم، واستنارت بأنواره الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم، وفاضت ببركاته صلى الله عليه وآله وسلم، كما قال أنس رضي الله عنه: (لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة أضاء منها كل شيء)[1].

ولقد سمّاها الله تعالى الدار والإيمان، فتسمى: الدار، وتسمى: الإيمان.

وسمّاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طابة فعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سمّى المدينة طابة.[2]

---

(١) تقدم تخريجه ص /٥٨/.

(٢) صحيح ابن حبان كتاب الحج ومسند الإمام أحمد.

وفي التوراة اسمها: طابة، وإنّ تعدد أسمائها يدلّ على كثرة خصائصها وفضائلها.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: الأنصار ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩] أي: المهاجرين. فسمّاها سبحانه الدار، لأنّها دار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ودار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوق كل دار، ومدينته فوق كل مدينة. وقوله تعالى: ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: المدينة أيضاً، وذلك لأن الإيمان اجتمع فيها، وعنها شعّ وذاع، وإليها يأوي آخر الزمن، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة» أي: يأوي إليها «كما تأرز الحية إلى جحرها»[1] وهذا ما سيحصل آخر الزمن.

---

(١) رواه الإمام البخاري في كتاب الحج.
ومسلم في كتاب الإيمان (١٤٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

فلقد مدح الله تعالى أهل المدينة وسمّاهم الأنصار، لأنهم نصروا الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وآووا المهاجرين وأكرموهم، وقد شهد لهم سبحانه بالإيمان الحق فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: المهاجرون ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ أي: الأنصار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

وقد مدحهم سبحانه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: مِنْ قَبْلِ أن يهاجر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

فقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: أنهم لا ينفكّون عن الإيمان، فقد أقامت أجسامهم في ظاهر تلك الدار، وأقامت الأرواح والقلوب والعقول

منهم في حقيقة الإيمان، فهم لا ينفكون عن الإيمان، والإيمان لا ينفك عنهم أبداً.

وقوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: من المهاجرين ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾ أي: وهذا من صفة أهل الإيمان الكامل، وقد ذكر الله تعالى ذلك حتى يتخلّق المؤمنون من بعدهم بأخلاقهم وسجاياهم. ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ أي: أنّ أحدهم إذا أُوتي نعمة ونال مالاً وجاهاً، فالأنصاري الآخر لا يجد في نفسه حاجة إلى ما أوتي ذلك الرجل، فلا يحسده أو يتمنى ذلك له مع زوالها عن ذلك الرجل ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾ أي: يؤثرون غيرهم على أنفسهم بما أنعم الله عليهم وتفضّل، لا أنهم يَستأثرون على غيرهم، ولو كان بهم حاجة شديدة إلى ما بذلوه وقدّموه وآثروا غيرهم عليه.

وهذا مقام كبير، وهو مقام الإيثار، وقد وصف الله تعالى به عباده المؤمنين الأنصار، وما هذا إلا بتعاليم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإرشاداته، لأن الصحابة رضي الله عنهم إنما هم تربية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فهو صاحب الفضل والمنة عليهم صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد ورد في الحديث الصحيح[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إني مجهود. فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء. ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء.

فقال: «من يضيف هذا الليلة رحمه الله» أي: رحمة خاصة.

---

(١) رواه الإمام البخاري في كتاب التفسير (٤٨٨٩)، ومسلم في كتاب الأشربة (٢٠٥٤).

فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته: هل عندك شيء ؟

قالت: لا، إلاّ قوت صبياني.

قال: فعلّليهم بشيء ـ أي: أشغليهم كي يناموا ـ فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السّراج، وأريه أنا نأكل، فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى السراج حتى تطفئيه ـ وإنما أمرها أن تطفئ المصباح حتى إذا جلسا معه أوهماه أنهما يأكلان معه، وإلا إذا علم أنّ الطعام لا يكفي وقع في حرج، وعندها يستحيي أن يأكل ـ.

قال: فقعدوا وأكل الضيف ـ وهذا قبل نزول آية الحجاب ـ فلما أصبح غدا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة» أي: ما أعظم هذا الإيثار الذي آثرتما عليه ضيفكما، وهو ضيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وما هذا إلا لقوة الإيمان وتمكنه في القلب.

وفي رواية[1]: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنّا جلوساً مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة» فطلع رجل من الأنصار تنطُف لحيته ـ أي: تقطر ماءً ـ من وَضوئه، قد تعلّق نعليه في يده الشمال، فلما كان الغد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثل مقالته أيضاً، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأول.

فلمّا قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم تبعه عبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فقال: إني لاحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً؛ فإن رأيت أن

---

(١) عند البخاري (٤٨٨٩).

تُؤويني إليك حتى تمضيَ فعلتَ. قال: نعم.

وإنما قال له ذلك ليتبين ماذا يفعل حتى أخبر عنه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بذلك.

قال أنس رضي الله عنه: وكان عبد الله يُحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث، فلم يره يقوم من الليل شيئاً، غير أنه إذا تعارّ ـ أي: استيقظ من نومه ـ وتقلب على فراشه ذكر الله عزّ وجل، وكبّر حتى يقوم لصلاة الفجر ـ وكان عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما صَوّاماً قوّاماً يختم القرآن الكريم في كل ثلاث وربما في ليلة ـ.

قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً. فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحتقر عمله، قلت: يا عبد الله إنِّي لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر ثَمّ، ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لك ثلاث مِرار: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة». فطلعت أنت الثلاث مِرار، فأردت أن آوي إليك

لأنظر ما عملك فأقتدي به، فلم أرَكَ تعمل كثير عمل. فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟!.

فقال: ما هو إلا ما رأيت.

قال: فلمّا وليتُ دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشّاً، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه. فقال عبد الله: هذه التي بلَغتْ بك، وهي التي لا نطيق[1] اهـ.

وسمى الحافظ المنذري[2] الرجل المبهم سعداً، ثم قال الحافظ المنذري: ورواه البيهقي أيضاً[3] عن سالم بن عبد الله عن أبيه ـ يعني: ابن عمر رضي الله

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٣/ ١٦٦) وعزاه في مجمع الزوائد (٨/ ٧٨) إلى البزار ورواه النسائي في السنن الكبرى وعبد الرزاق في مصنفه.

(٢) في كتابه الترغيب والترهيب، في الترهيب من الحسد وفضل سلامة الصدر، نقلاً عن البزار، كما في مجمع الزوائد (٨/ ٧٩).

(٣) في شعب الإيمان (٦٦٠٧).

عنهم ـ قال: كنّا جَلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «ليطلعنَّ عليكم رجل من هذا الباب من أهل الجنة» فجاء سعد بن مالك رضي الله عنه فدخل منه.

قال البيهقي: فذكر الحديث قال: فقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: ما أنا بالذي أنتهي حتى أبيتَ عند الرجل فأنظر عمله، فذكر الحديث في دخوله عليه. قال عبد الله: فناولني ـ أي: سعد ـ عَباءة فاضطجعت عليها قريباً منه، وجعلت أرمقه ـ أي: أنظره ـ بعيني لَيْلَهُ ـ أي: كله ـ كلّما تعارّ سبّح وكبّر وهلّل، وحمد الله تعالى، حتى إذا كان وجه السحر ـ أي: إذا صار وقت السحرـ قام فتوضأ، ثم دخل المسجد فصلّى اثنتي عشرة ركعة، باثنتي عشرة سورة من المفصل، ليس من طواله ولا من قصاره، ويدعو في كل ركعتين بعد التشهد بثلاث دعوات، يقول: اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. اللهم اكفنا ما

أهمَّنَا من أمر آخرتنا ودنيانا. اللهم إني أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كلّه. إلى آخر الحديث.

أي: أنه كان متوسط الأعمال، ولكنه اتصف بخلق كريم، وهو أنه لا يجد في نفسه حقداً أو غشّاً لأحد من المسلمين، بل يُحب الخير لكل المسلمين من صميم قلبه كما يحب الخير لنفسه. وكما أنّه صادق في طلب الخير لنفسه فهو كذلك مع غيره، ولا يحسد أحداً على فضل أعطاه الله إياه.

وهذا كما قال سبحانه في وصفهم: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

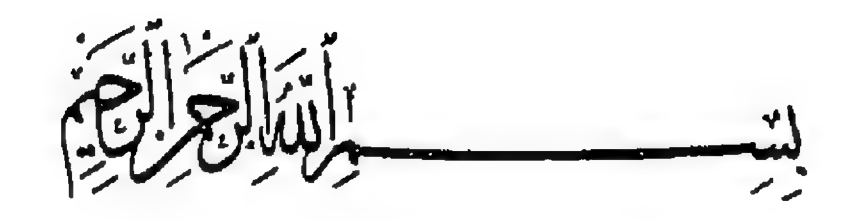
وقد أثنى الله تعالى أيضاً على المهاجرين الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وسماهم ﴿ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ وشهد لهم بذلك، وتسمية الله تعالى لا تكون إلا بالحق، فقد

تحققوا بما تحمله كلمة الهجرة من معانٍ، ومن ذلك أنهم هجروا ما نهى الله عنه، وقد شهد الله سبحانه لهم بالإيمان الحق، كما دلت عليه الآية المتقدمة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين

❖ ❖ ❖ ❖ ❖



المحاضرة الثالثة:

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد أظهر الله تعالى في الهجرة معجزات كبيرة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما ظهرت عنايته سبحانه الخاصة برسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد خرج صلى الله عليه وآله وسلم من مكة حزيناً من أذى قريش، متخفّياً متكتّماً، ثاني اثنين، كل هذا إشارات ورموز إلى معانٍ كبرى:

فخروجه صلى الله عليه وآله وسلم من مكة إخراج

لأهلها منها، ومن الدنيا كلها، كما أنه صلى الله عليه وآله وسلم خرج حزيناً من مكة، وعاد إليها فاتحاً فرحاً بنصر الله تعالى.

وخرج ثاني اثنين ليس معه إلا أبو بكر رضي الله عنه، لكنه عاد ورجع إليها ومعه جماهير الصحابة فاتحاً مكة.

وخرج صلى الله عليه وآله وسلم متكتماً اختفى في الغار عن أعين الكفار، لكنه رجع إلى مكة راكباً على ناقة، وهو في أبهى المظاهر، وحوله جماهير المسلمين، وأعين المشركين تنظر إليه صلى الله عليه وآله وسلم، وهم خائفون فزعون يتسارعون إلى الدخول في الإسلام، راغبين في الأمان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقد كان في تحركاته صلى الله عليه وآله وسلم في حِلّه وترحاله إيماءات وإشارات إلى وقائع وحوادث كونية ستحصل فيما بعد، وهذا ما أدركه الصحابة رضي الله عنهم في حياته وبعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم.

فلمّا حَصَبَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أولئك الذين حاولوا قتله، قتلهم الله تعالى يوم بدر وهذا إيماء نبويّ منه صلى الله عليه وآله وسلم إلى ذلك بحصبه إيّاهم، وأما الذين أصابهم التراب فلم يُقتلوا.

ولقد قالت العرب: القول نوعان ـ أي: القول الذي يدلّ على معنى نوعان ـ قول لفظي كلامي، وقول فعلي.

فقد يقال: قال بيديه هكذا. أي: فعل بيديه هكذا. فالفعل يدلّ أيضاً على ما يدلّ عليه القول، فقد تشير إلى إنسان إشارة فيفهم منها: **اجلس فيجلس**، فكأنك قلت له قولاً بلسانك: **اجلس** وهكذا. فالأفعال والأقوال تدل على معاني.

ومن ذلك: ما فعله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر لمّا أخذ كفّاً من الحصباء فرمى به في وجوههم، وقال: «شاهت الوجوه» ـ أي: قبحت ـ فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه ومنخريه منها شيء؛ فانهزموا.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] [(١)].

فهذه الوقائع والحوادث الكونية أشار إليها بأفعاله صلى الله عليه وآله وسلم لا بكلامه. ولذلك فإن أفعال سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأقوالَه تدل على معان كبيرة يفهمها من يفهمها.

فكان خروجه صلى الله عليه وآله وسلم من مكة إيماءً لإخراج المشركين منها، فقد خرج صلى الله عليه وآله وسلم ظاهراً، لكنه أخرجهم حقيقة، إذ قُتِل منهم يوم بدر سبعون، وأُسِر سبعون، وَضَعُفت شوكتهم إلى أنْ فتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة، ولم يبق فيها مشرك، إذ أنها أسلمت واستسلمت.

ومن جملة إشاراته الفعلية للأمور الغيبية ما جاء في الصحيحين[(٢)] عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في

---

(١) انظر الدر المنثور للحافظ السيوطي عند هذه الآية الكريمة.

(٢) البخاري كتاب فضائل الصحابة (٣٦٧٤)، ومسلم كتاب

حديث بئر أريس، وكيف أنه صلى الله عليه وآله وسلم جلس على حافة البئر، ودلّى رجليه، وكشف عن ساقيه، والى جانبه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وأمامه عثمان رضي الله عنه ـ والساق: هو ما تحت الركبة إلى القدم ـ وكيف تأوّل التابعون ذلك بأنه إشارة إلى الوفيات وأماكن القبور.

ولقد فرض الله تعالى الهجرة على المسلمين في مكة، ولم يبق منهم إلا الضعفاء والمساكين، ونزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧ ـ ٩٩].

فضائل الصحابة (٢٤٠٣).

ولما نزلت هذه الآيات وبلغت أولئك الضعفاء والعاجزين عن الهجرة وهم في مكة، جعلوا يتحركون إلى الهجرة مع ضعفهم وعجزهم، ولِمَا علموا من الوعيد والتهديد لمن تخلّف عن الهجرة.

ومن جملة هؤلاء[1] جندب بن ضمرة فقال لبنيه ـ وكان شيخاً كبيراً ـ: والله لا أبيت الليلة بمكة، فحملوه على السرير متوجهين إلى المدينة المنورة، فلمّا بلغ التنعيم أشرف على الموت، فصفّق بيمينه على شماله ثم قال: اللهم هذه لك وهذه لرسولك، أبايعك على ما بايعك رسولك. وأنزل الله تعالى فيه وفي أمثاله كأكثم بن صيفي وغيره ممن قصد الهجرة ولم يصل إلى المدينة؛ لأن الموت أدركه في الطريق: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً

---

(١) انظر تفسير البيضاوي وأبي السعود عند قوله تعالى: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ﴾، وينظر ابن جرير والدر المنثور والإصابة.

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠] أي: وجب أجره على الله، وله أجر المهاجرين لأنه عزم وسلك الطريق.

وكان المشركون يمنعون المسلمين المهاجرين من أخذ أموالهم، فكان المهاجرون يتركونها ويهاجرون إلى الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، إيماناً وحباً في الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

روى الحاكم في المستدرك[1] عن صهيب الرومي رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة، وخرج معه أبو بكر رضي الله عنه، وكنت قد هممت بالخروج معه، فصدّني فتيانٌ من قريش، فجعلت ليلتي تلك أقوم ولا أقعد، فقالوا: قد شغله الله عنكم ببطنه، ولم أكن شاكياً. فقاموا، فلحقني

---

(١) (٣/ ٤٠٠).

منهم ناس بعد ما سرت بريداً ليردّوني. فقلت لهم: هل لكم أن أعطيكم أواقي من ذهب وتُخَلُّون سبيلي وَتَفُونَ لي؟ فتبعتهم إلى مكة فقلت لهم: احفروا تحت أسكفة الباب، فإن تحتها الأواقي، واذهبوا إلى فلانة فخذوا حلّتين، وخرجت حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن يتحول منها ـ يعني: قباء ـ. فلما رآني قال: «يا أبا يحيى ربح البيع .ثلاثاً»، فقلت: يا رسول الله ما سبقني إليك أحد، وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام.

وروى ابن سعد[1] عن أبي عثمان النهدي أنَّ صهيباً رضي الله عنه حين أراد الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صُعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، وتريد أن تخرج بنفسك ومالك، والله لا يكون ذلك.

فقال لهم صهيب رضي الله عنه: أرأيتم إن تَركْتُ لكم مالي أتخلون سبيلي؟

---

(١) في الطبقات (٣/ ٢٢٧)، وسيرة ابن هشام.

قالوا: نعم. فجعل لهم ماله أجمع. فبلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب».

وفي هذا الصحابي الكريم وأمثاله نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وكان أول المهاجرين من مكة إلى المدينة أبو سلمة ابن عبد الأسد هاجر إلى المدينة قبل بيعة العقبة بسنة، وحُبِسَت عنه امرأته أم سلمة هند بنت أبي أمية، فكانت تخرج كل غداة فتبكي، حتى مرّ بها رجل من بني المغيرة فرأى ما بها فرحمها فقال لبني المغيرة: ألا تُخرجون هذه المسكينة، فرّقتم بينها وبين زوجها.

فقالوا لها: الحقي بزوجك إن شئت. فانطلقت وحدها مهاجرة، حتى إذا كانت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة ـ وكان يومئذ مشركاً، وأسلم بعد ذلك ـ فشيّعها حتى إذا أوفى على قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال لها: هذا زوجك في هذه القرية. ثم انصرف راجعاً إلى

مكة. فكانت تقول: ما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عنّي، حتى إذا نزلت عنه استأخر ببعيري فحطّ عنه، ثم قيّده في الشجرة، ثم أتى إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدّمه فرَحّله، ثم استأخر عني وقال: اركبي. فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقادني، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة[1].

وروى الإمام أحمد[2] عن السيدة أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيراً منها: إلا آجره الله في مصيبته، وخلف له خيراً منها» قالت: فلمّا توفي أبو سلمة رضي الله عنه قلت:

---

(١) ينظر سيرة ابن هشام السيرة الشامية ٣/٣١٤.

(٢) (٦/ ٣٠٩)، وصحيح مسلم (٩١٨).

من خيرٌ من أبي سلمة، صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ ـ إذ كان أول المهاجرين وفيه السماحة والكرم ـ قالت: ثم عزم الله لي فقلتها: اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها.

قالت: فتزوجت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي رواية[1]: ثم إني قلتها فأخلف الله لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قالت: أرسل إليَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له ـ وكانت السيدة أم سلمة امرأة ذات كمال وعقل وافر ـ.

فقلت: إن لي بنتاً وأنا غَيور.

فقال: أما ابنتها فندعوا الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يذهب بالغيرة. فتزوّجها من هو خير من أبي سلمة،

---

(١) في صحيح الإمام مسلم، كتاب الجنائز (٩١٨).

ومن هو خيز خلق الله أجمعين، ونالت الشرف الأكبر.

ومن جملة النساء اللاتي هاجرن إلى المدينة: دُرَّة بنت أبي لهب، ابنة عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أسلمت وهاجرت إلى المدينة، ولما وصلت إلى المدينة قالت لها بعض النساء: أنت بنت أبي لهب الذي نزل في أبيك قوله تعالى: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ السورة فَهِجرتك لا تفيدك شيئاً ولا تنفعك، قالت: فَحَزِنتُ وأتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأخبرته بذلك، فصلّى الظهر وصعد المنبر وقال: «يا أيها الناس ما بال أقوام يؤذونني في نسبي وذوي رحمي؟ ألا وَمَنْ آذى نسبي وذوي رحمي فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله»[1].

وهاجرت السيدة أم أيمن الحبشية حاضنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة وهي صائمة،

---

(١) عزاه في الإصابة لابن منده.

ليس معها زاد، ولا حُمولة، ولا سقاء، في شدة حرّ تِهامة، وقد كادت تموت من الجوع والعطش، حتى إذا كان الحين الذي فيه يُفطر الصائم، سَمِعَتْ حفيفاً على رأسها فإذا دلو معلق برشاء أبيض ـ أي: حبل ـ قالت: فأخذته بيدي فشربت منه حتى رويت، فما عطشت بَعْدُ، فكانت تصوم وتطوف لكي تعطش في صومها، فما قدرت أن تعطش حتى ماتت [1].

ولقد أثنى الله تعالى على المهاجرين ثم على الأنصار، وأثنى على التابعين من بعدهم بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ وهذا بيان لمواقفهم مع الصحابة قبلهم، فهم يحبونهم ويعظّمونهم، ويدعون لهم كما يدعون لأنفسهم ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ

(١) رواه الإمام عبد الرزاق في مصنفه في كتاب الصيام (٧٩٠٠).

ﺀَامَنُواْ﴾ [الحشر: ٦٠] أي: لمن قبلهم ومن بعدهم. فقد سألوا صفاء القلب ولو من أدنى غلّ. والتنكير في قوله تعالى: ﴿غِلًّا﴾ للتقليل. وهذه صفة المؤمنين الصادقين، ولولا أنّ للغلّ في قلب المؤمن خطراً كبيراً على إيمانه لَما ذكره الله تعالى لنا، ولَما علّمنا هذا الدعاء.

ولقد أثنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على المؤمنين الذين يأتون من بعده إلى يوم الدين.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتى المقبرة فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون. وددت أنا قد رأينا إخواننا».

قالوا: أوَ لسنا إخوانك يا رسول الله؟!!.

قال: «أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بَعْدُ». أي: هم المؤمنون الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يروه في الدنيا، وفي هذا بشارة لكل

مؤمن بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد عقد بينه وبينه أُخوة، فعليه أن يحفظ حق هذه الأخوّة، ويرعى حق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقالوا: كيف تعرف مَنْ لَمْ يأت بعدك من أمتك يا رسول الله؟

فقال: «أرأيت لو أن رجلاً له خيل غرّ محجّلة بين ظهر خيل دُهْم بُهْمٍ ألا يعرف خيله»؟. أي: ألا يعرف خيله السوداء اللون من خيل غيره ؟.

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: «فإنهم يأتون غرّاً محجّلين من الوضوء» أي: لهم أنوار في وجوههم وأيديهم وأرجلهم «وأنا فرطهم على الحوض»[1] أي: سابقهم إلى الحوض وأستقبلهم.

وفي الحديث: «حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض

---

(١) رواه مسلم في كتاب الطهارة (٢٤٩) وابن حبان في صحيحه (١٠٤٣) والإمام ابن ماجه في كتاب الطهارة و الإمام أحمد في مسنده.

من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه ـ أي: آنيته ـ كنجوم السماء. مَنْ شرب منها فلا يظمأ أبداً»[1].

واعلم أن المرء يشرب من الحوض على حسب شربه في الدنيا من شريعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتشرّبه لشرع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فلمّا أشرِبت قلوب المؤمنين شرع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الدنيا، صار عندهم الاستعداد لأن يشربوا من حوض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. اللهم اجعلنا منهم.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وددت أنّا قد رأينا إخواننا» أي: في الدنيا كما رأيت الصحابة.

أما هو صلى الله عليه وآله وسلم فيعرفهم، وقد كشف الله له عنهم.

---

(١) رواه الإمام البخاري في كتاب الرقاق (٦٥٧٩) واللفظ له ومسلم في كتاب الفضائل (٢٢٩٢) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «عرضت عليَّ أمتي البارحة لدى هذه الحجرة أولها إلى آخرها».

فقال رجل: يا رسول الله هذا عُرض عليك مَنْ خُلق؛ فكيف عُرض عليك مَنْ لَمْ يُخلق؟

قال: «صوروا لي في الطين حتى لأنا أعرف بالإنسان منهم من أحدكم بصاحبه»[1].

كما عرضت عليه صلى الله عليه وآله وسلم أمته مرة أخرى عندما عُرضت عليه الأمم كلّها، فقال في أمته صلى الله عليه وآله وسلم: «فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً

---

(١) الطبراني في المعجم الكبير (٣/٢٠٠) وينظر فيض القدير للمناوي.

يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»[1].

وعن عُمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله عز وجل قد رفع لي الدنيا، فأنا أنظر إليها وإلى ما هو كائن فيها إلى يوم القيامة، كأنما أنظر إلى كفي هذه» جليّان. جلاهما الله لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم الحديث[2].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تعالى زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها»[3].

فلقد أراه الله تعالى العوالم كلها، وكشف له عن العوالم الماضية والآتية، حتى رأى حوضه صلى الله

---

(١) طرف من حديث رواه البخاري في كتاب الطب (٥٧٠٥) ومسلم في كتاب الإيمان (٢٢٠) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) عزاه في مجمع الزوائد (٨/ ٢٨٧) إلى الطبراني.

(٣) طرف من حديث رواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٩) عن سيدنا ثوبان رضي الله عنه.

عليه وآله وسلم في الموقف، وقال: «إني فَرَط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن»[1] وهو على منبره صلى الله عليه وآله وسلم.

فلا تقِس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنفسك، فهو القائل: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء وحقّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله»[2]. فكان صلى الله عليه وآله وسلم يسمع أطيط السماوات وتسبيح الملائكة، ويرى بقوة من رب العالمين سبحانه.

ألا ترى إلى ذلك الرجل الذي رآه رسول الله صلى

---

(1) طرف من حديث رواه البخاري في كتاب الجنائز (١٣٤٣) ومسلم في كتاب الفضائل (٢٢٩٦) عن سيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(2) طرف من حديث رواه الترمذي في كتاب الزهد (٢٣١٣) وابن ماجه (٤١٩) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه.

الله عليه وآله وسلم مِنْ وراء الجدر وقال: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة»[1].

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يوماً على المنبر في المسجد، فالتفت إلى باب المسجد وقال: «يدخل عليكم من هذا الفجّ مِنْ خير ذي يَمَن، ألا وإنّ على وجهه مسحة ملك»[2] وتابع صلى الله عليه وآله وسلم خطبته الشريفة. ثم بعد ذلك دخل جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه، وكان ذا سَمْت حسن، وصورة جميلة، والصحابة ينظرون إليه. ونسأل الله تعالى أن يشملنا بأنوار سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأسراره. آمين.

واعلم أن لِمَسَحاته الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم أثراً كبيراً في حصول الخيرات والبركات، فقد مسح تلك الشاة الهزيلة عند أم معبد فحلبت وحلبت،

---

(١) تقدم نصه وتخريجه ص/ ١١٤/.

(٢) عزاه في مجمع الزوائد (٩/ ٣٩٥) إلى الطبراني.

ومن ذلك ما ورد عن أبي قِرصافة قال: كان بدء إسلامي أني كنت يتيماً بين أمي وخالتي، وكان أكثر ميلي إلى خالتي، وكنت أرعى شويهات لي. فكانت خالتي كثيراً ما تقول لي: يا بني لا تمرّ إلى هذا الرجل ـ تعني: النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيغويك ويضلّك. إلا أنه كان ينجذب قلبه وروحه إلى الجلوس عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال: فكنت أخرج حتى آتي المرعى، وأترك شويهاتي، وآتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فلا أزال أسمع منه، ثم أروّح غنمي ضُمراً يابسات الضروع.

وقالت لي خالتي: ما لغنمك يابسات الضروع ؟!

قلت: ما أدري. ثم عدت إليه اليوم الثاني، ففعل كما فعل في اليوم الأول، غير أني سمعته يقول: «يا أيها الناس هاجروا، وتمسكوا بالإسلام، فإن الهجرة لا تنقطع ما دام الجهاد» ثم إني رحت بغنمي كما رحت في اليوم الأول، ثم عدت إليه في اليوم الثالث، فلم أزل

عنده أسمع منه، حتى أسلمت وبايعته، وصافحته وشكوت إليه أمر خالتي وأمر غنمي.

فقال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «جئني بالشّياه» فجئته بهنّ، فمسح ظهورهن وضروعهن ودعا فيهن بالبركة، فامتلأن شحماً ولبناً.

فلما دخلت على خالتي بهنّ ـ أي: بالشياه ـ قالت: يا بنيّ هكذا فارع. قلت: يا خالة ما رعيت إلا حيث أرعى كل يوم، ولكن أخبركِ بقصتي. وأخبرتها بالقصة وإتياني النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأخبرتها بسيرته وبكلامه.

فقالت أمي وخالتي: اذهب بنا إليه. فذهبت أنا وأمي وخالتي، فأسلمن وبايعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. اهـ.

وقالتا له: يا بنيّ ما رأينا مثل هذا الرجل: أحسن منه وجهاً، ولا أنقى منه ثوباً، ولا ألين كلاماً، ورأينا

كأن النور يخرج من فِيْهِ صلى الله عليه وآله وسلم[1].

ومن ذلك مسحه صلى الله عليه وآله وسلم على شاة لم ينْزُ عليها الفحل، لمّا مرّ على ابن مسعود رضي الله عنه وهو يرعى غنماً لعقبة. كما جاء في مسند الإمام أحمد[2]، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنت أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط، فمرّ بي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا غلام هل من لبن»؟.

قال ابن مسعود: فقلت: نعم، ولكني مؤتمن.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فهل من شاة لم ينز عليها الفحل»؟ ـ أي: لا تحلب ـ فأتيته بشاة، فمسح صلى الله عليه وآله وسلم ضرعها، فنزل لبن، فحلبه في إناء فشرب وسقى أبا بكر رضي الله عنه.

---

(١) عزاه في مجمع الزوائد (٨/ ٢٧٩) إلى الطبراني.
(٢) (١/ ٣٧٩).

وفي رواية[1]: فشرب وشرب أبو بكر وشَرِبْتُ، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم للضرع: «أُقلص» - أي: أمسك - فقلص. قال ابن مسعود: ثم أتيته بعد هذا فقلت: يا رسول الله علّمني من هذا القول. وفي رواية: علمني من هذا القرآن. فمسح رأسي وقال: «يرحمك الله فإنك غليّم معلَّم». قال: (فأخذت من فيه صلى الله عليه وآله وسلم سبعين سورة).

ولما وصل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مهاجراً من مكة إلى المدينة المنورة بأنواره صلى الله عليه وآله وسلم، ودخلها في شهر ربيع الأول، استقبله أهل المدينة بالفرح والسرور، والبهجة والحبور وهم ينشدون:

طلـــع البـــدر علينـــا ‏ ‏ ‏ مـــن ثنيّـــات الـــوداع
وجـــب الشـــكر علينـــا ‏ ‏ ‏ مـــا دعـــا لله داع

---

(١) في مسند الإمام أحمد (١/ ٣٧٩).

فكان وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حيث الوضاءة الجسمانية كالقمر ليلة البدر، ومن حيث المعاني النورانيّة كالشمس المشرقة، كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦] ولذلك قال أهل المدينة: (طلع البدر علينا) فوصفوه صلى الله عليه وآله وسلم بالبدر لكمال نورانية وجهه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا ما قالته الرُّبَيِّع بنت معوذ رضي الله عنها لمّا وصفت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للتابعين: «يا بني لو رأيته لرأيت الشمس طالعة»[(١)] وحاشا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يصفوه بما ليس فيه، أو يكذبوا عليه، بل إنما ذكروا الحق والحقيقة، رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) رواه الإمام الدارمي في سننه في المقدمة في باب حسن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (١/ ٣١).

وإن في وصف الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأنه السراج المنير، بياناً للناس أنهم لا غنى لهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فكما لا يستغنون عن الشمس الفلكية التي تتوقف عليها حياة أجسامهم، والتي قال الله تعالى فيها: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [عم: ١٣] وقد يستغني المرء عن الشمس لفترة طويلة ـ كما في الليل مثلاً ـ إلا أنّه لا غنى له عن النور في الليل والنهار، فلا غنى لهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولو للحظة، لأنه بنوره صلى الله عليه وآله وسلم تحيا القلوب والأرواح والعقول، حتى الأجسام التابعة للأرواح.

فإذا كان الخلق محتاجين إلى الشمس الفلكية لتستقيم حياتهم الدنيوية، فهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشد حاجة ليسعدوا في الدنيا والآخرة، ويجب أن يكون موقفهم معه صلى الله عليه وآله وسلم موقف المستنير المستضيء بأنواره صلى الله عليه وآله وسلم.

وما دام نور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونور دين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مظلاً لهذا العالم فهو باقٍ، ومتى غربت شمس النبوة المحمدية عن هذا العالم كله خرب هذا العالم، وهذا ما قاله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الشريف: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله»[1]، وفي رواية[2]: «حتى لا يقال في الأرض: لا إلّه إلا الله».

فلا تقوم الساعة وأثر النور المحمدي موجود على ظهر الأرض. فالنور المثبت لهذا العالم إنما هو نور النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وهذا ما يجب علينا أن يكون أمر رسول الله

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان (٢٣٤) والترمذي في كتاب الفتن (٢٢٠٨) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) في مسند الإمام أحمد (٣/ ٢٦٨) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

صلى الله عليه وآله وسلم مطاعاً، وأن يكون في قلوبنا توجّه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، واستنارة بأنواره الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم، وانقيادٌ لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومحبة له صلى الله عليه وآله وسلم. وجزاه الله عنا خير الجزاء.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الرابعة:

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

تقدم الكلام على أنّ الهجرة إلى المدينة المنورة كان بدؤها في أول شهر الله المحرّم، وقد اعتبر ذلك مبدأً للتاريخ الإسلامي، والسبب في ذلك: أن الصحابة رضي الله عنهم حين اجتمعوا لأجل أن يجعلوا في الإسلام مبدأً للتاريخ أيام خلافة سيدنا عمر رضي الله عنه، بعد أن جرت أمور اقتضت أن يُحددوا للتاريخ مبدأً، فقد كانت تُرفع الكتب إلى سيدنا عمر رضي الله عنه دون أن يكون لها تاريخ، وكان يكتب الكتب إلى

عُمّاله فلا يعرفون مبدأ تاريخها، فتذاكر جمهور الصحابة في هذا الأمر، حتى استقرّ رأيهم على اعتبار أنّ مبدأ الهجرة إلى المدينة هو مبدأ التاريخ الإسلامي وذلك لأهمية الهجرة في تاريخ الإسلام، ولما تضمنته من معانٍ وحكم وأسرار بقيت وستبقى إلى آخر الأمة.

واعلم أن مبدأ التاريخ يُذكّر بالتاريخ وما جرى في مبدئه، فَمَنْ ذكر الهجرة تذكّر مقامات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وسيرته، وخصاله، وفضائله التي فضّله الله تعالى بها.

وتذكّر أيضاً مَواقف المهاجرين والأنصار مع الله تعالى، ومع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم. وذلك لأنّ المهاجرين هجروا الأوطان والبلاد، وتركوا العيال والأموال مهاجرين إلى الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وإنّ الخروج عن الأموال والديار والعيال ليس بالأمر السهل الهيّن على الإنسان.

ثم إن في الهجرة هجراً للذنوب والمخالفات التي

نهاهم عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفيها تقديم لأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أمر أنفسهم، وإيثارٌ لنفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على نفوسهم، وفيها تقديم رغبتهم في النبي صلى الله عليه وآله وسلم على رغبة نفوسهم، وفيها تحقّقهم بمحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوق محبتهم لنفوسهم وآبائهم وأمّهاتهم وأموالهم.

ثم إن في ذكر الهجرة تذكيراً للأمة إلى يوم القيامة بمواقف المهاجرين مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فتنشط همّة المؤمن فيهجر الخطايا والذنوب، ويؤثر محبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الأولاد والآباء والأمهات والأموال، وفي هذا تمرين لنفوس المؤمنين، وتعليم لهم كيف تكون حقائق الإيمان بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

من أجل هذا كله رأى جمهور الصحابة رضي الله عنهم، وفيهم عمر وعثمان وعليّ رضي الله عنه، رأوا

أن يكون مبدأ تاريخ الإسلام هو مبدأ الهجرة الشريفة.

ومن هنا أرّخوا بمبدأ الهجرة وهو أول شهر المحرم، لأن بَدْء الهجرة إلى المدينة المنورة كان في أول شهر محرم، وهي هجرة الصحابة رضي الله عنهم إلى المدينة المنورة، أمّا هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة فكانت في أول شهر ربيع الأول، وَوَصل صلى الله عليه وآله وسلم المدينة ودخلها في الثاني عشر من شهر ربيع الأول.

ولقد نصّ العلماء على أنّ التأريخ بالسنة الهجرية أَمْرٌ شرعيّ له أثره في الإسلام، لا ينبغي أن يُهجَر، وإن أرّخ بتاريخ آخر فلا ينبغي ترك تاريخ الهجرة، لِما لها مِنْ معانٍ وحِكَم وفوائدَ وأسرار تنفع كل مؤمن إلى يوم الدين.

وهو أمر أجمع عليه الصحابة رضي الله عنهم، فينبغي اتباعهم في ذلك عملاً بقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين

المهديين، عضّوا عليها بالنواجذ»[1].

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما روى البيهقي وغيره[2] ـ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» وفي رواية الديلمي بلفظ: «إن أصحابي بمنزلة النجوم في السماء، فأيما أخذتم به اهتديتم».

وإنّ في ذكر الهجرة إعلاناً بمواقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفضله وعناية الله تعالى به، وإعلاناً بمواقف المهاجرين ومناقبهم وفضائلهم. وإنّ

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٤/١٢٦) وأبو داود في كتاب السنة /٤٦٠٧/ والترمذي في كتاب العلم /٢٦٧٨/ عن سيدنا العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٢) انظر كشف الخفاء (١/ ١٤٧)، وقال ابن حجر في تلخيص الحبير: رواه عبد بن حميد في مسنده، ورواه القضاعي في مسند الشهاب، وأبو ذر الهروي في كتاب السنة. وقال في لسان الميزان: أخرجه الدارقطني في غرائب مالك، والخطيب في الكفاية، وابن أبي حاتم وقال الخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح: رواه رزين.

الهجرة مقام ينطوي تحته مقامات متعددة، وذلك لأنّ الهجرة فَرضت على مَنْ أسلم من أهل مكة بأنْ يهاجروا إلى المدينة، كما فرضت على بقيّة الآفاق أن يُهاجروا إلى المدينة مدة معينة، ولهم أنْ يعودوا إلى بلادهم بعد ذلك إن شاؤوا.

أما أهل مكة فقد فُرضت عليهم الهجرة إلى المدينة، وأن يمكثوا فيها حتى فتح مكة، وبقي هذا الفرض بالهجرة قائماً إلى أن فتح صلى الله عليه وآله وسلم مكة، وقال عندئذ: «لا هجرة بعد الفتح ـ أي: لا هجرة مفروضة ـ ولكن جهاد ونية»[1].

فنسخت[2] الفريضة من حيث الهجرة الحسيّة، ولكن بقيت معانٍ تنطوي عليها الهجرة لابد لكل مؤمن

---

(١) رواه الإمام البخاري في أول كتاب الجهاد والسير (٢٧٨٣)، والإمام مسلم في كتاب الحج (١٣٥٣) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما والإمام الترمذي في سننه في كتاب السير.

(٢) انظر فتح الباري (٦/ ٤٨)، وعمدة القاري (١٧/ ٣٧).

منها، ومنها أن تكون نية كل مؤمن أن يهاجر إلى المدينة فيما لو استمرت فرضيتها. وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ولكن جهاد ونيّة».

أما الهجرة التي استمرّت فرضيتها على كل مؤمن إلى يوم القيامة فهي هجرة الخطايا والذنوب، لأنّ الهجرة تتضمن: هجرة النفس والأهواء والشياطين الموسوسة، وأن تُؤثر أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتقدم هواه على ما تهواه نفسك، وهذا معنى من معاني الهجرة لم يزل مفروضاً على كل مسلم، وذلك بأن تُقدم ما يحبّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ما تحبّه نفسك، وتؤثر أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ما تهوى نفسك.

ومن هنا تفهم أن للهجرة معانٍ وأسراراً لا تنقطع، وقد تحقق بها أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذين هاجروا معه إلى المدينة، حتى هجروا الأموال والعيال، وهجروا كل شيء حباً في الله تعالى ورسوله

صلى الله عليه وآله وسلم، وطاعة لله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ولما تحقّقوا بمعاني الهجرة الحسيّة والمعنويّة سمّاهم الله تعالى ﴿ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، وإن تسمية الحقّ سبحانه لا تكون إلاّ بالصدق والحق، لأنك قد تمدح إنساناً ويكون مدحك على قدر علمك به، وربما مدحته بما ليس فيه. ولكن رب العالمين إذا مدح أحداً مِنْ عباده وأثنى عليه فإنّما يكون ذلك كله بالصدق والحق، فلمّا سمّاهم الله تعالى ﴿ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ دلّ ذلك على عظم فضلهم، وتحقّقهم بمقام الهجرة، وما انطوت عليه من معان، منها: هجرهم للأموال والعيال، وهجرهم الذنوب والخطايا، وإيثارهم أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على رغباتهم.

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع وفي غير ذلك من المناسبات ـ واعلم أنه صلى الله عليه وآله وسلم ما حج بعد هجرته إلا حجة الوداع[1]، أما قبل

---

(١) انظر شرح المواهب (٨/ ١٤٤).

الهجرة فقد حجّ ثلاثاً على الأصح ـ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا أخبركم مَنِ المسلم؟ مَنْ سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله عز وجل»[1].

فالمسلم ظاهراً هو الذي قال: لا إلّه إلا الله محمد رسول الله ﷺ، وهذا هو عِقْد الإسلام الجامع، ولكن يدخل في هذا العِقد والشهادتين أن يَسلم المسلمون من لسانك ويدك.

وإذا كان الإيمان يتطلب أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشرّه، ـ وهو إيمان اعتقادي قلبي ـ فهو يتطلب أيضاً أن يأمنك الناس على دمائهم وأموالهم.

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٦/ ٢٢) عن سيدنا فَضالة بن عبيد رضي الله عنه، وينظر البخاري (١٠) ومسلم (٤٠).

والهجرة تتضمن أيضاً أن تهجر الخطايا والذنوب حتى تُحقق معنى الهجرة.

والمجاهد مَنْ جاهد نفسه في طاعة الله عز وجل، بأن صبّر نفسه على عبادة الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾ [مريم: ٦٥] ومن حارب الهوى والشيطان حتى يكون حاضر القلب مع ربّه في عباداته له سبحانه.

ومما سبق يتبين لك عظمة مقام الهجرة، ولذلك أثنى الله تعالى على المهاجرين، وذكر مواقفهم في الإيمان بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وذكر ضمان المغفرة لهم، وذكر ضمان الجنة لهم، وذكرهم في أعالي مقامات أهل القرب الخاص. كما سيتّضح ذلك بالأدلة.

فلمّا ذكر سبحانه مراتب أهل الإيمان الكامل ذكر المهاجرين أولاً، ثم ذكر الأنصار ثانياً، ثم ذكر التابعين لهم إلى يوم الدين ثالثاً، فقال تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾

أي: الفقراء إلى رب العالمين ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ أي: وهذه شهادة لهم بالإخلاص، وابتغاء مرضاة الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم. ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨] أي: صدقوا مع الله تعالى، وصدقوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنهم هاجروا إلى الله تعالى وإلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله» أي: من كانت نيّته في هجرته مرضاة الله ورسوله فهو المهاجر الذي نال ما نال من معاني الهجرة وفضلها «ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1] أي: فليس له من ثواب الهجرة شيء.

---

(١) هذا أول حديث في صحيح الإمام البخاري، وقد رواه الإمام مسلم في كتاب الإمارة (١٩٠٧) واللفظ له.
والإمام أبو داوود في سننه في كتاب الطلاق،والإمام الترمذي في سننه في كتاب فضائل الجهاد،والإمام النسائي في سننه في كتاب الطهارة.

فلما قال سبحانه في المهاجرين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ فقد شهد لهم بصدق النيّة، وأنهم قد هاجروا إلى الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم ثنّى سبحانه فأثنى على الأنصار رضي الله عنهم ـ وهم الذين أسلموا من أهل المدينة ـ فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: دار النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهي المدينة المنورة ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: يحبون المهاجرين إليهم حباً إيمانياً ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ أي: مهما أوتي المهاجرون من مالٍ فلا يجد الأنصاري في نفسه حاجة أو ميلاً إلى ما أوتيه ذلك المهاجري ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: حاجة ملحة ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] فقد شهد سبحانه للأنصار بالفلاح والنجاح والفوز.

ثم أثنى سبحانه على المؤمنين الذين آمنوا بالنبي

صلى الله عليه وآله وسلم، واتّبعوا الصحابة بإحسان وهم التابعون وأتباعهم إلى يوم القيامة فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: إلى يوم القيامة ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وعلى هذا فإنّ أول الطبقات التي ذكرها الله تعالى بالمدح والثناء إنما هم المهاجرون رضي الله تعالى عنهم.

ولقد أثنى الله تعالى على المؤمنين الكمّل أولي الألباب عامة، ثم خصّ المهاجرين بالذكر فقال تعالى في [سورة آل عمران]: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ ولم يقل سبحانه هنا: لقوم يعقلون، لأنّ أولي الألباب هم الذين انتهوا إلى مقام في القرب، وهو مقام أعلى مِنَ التعقّل الظاهر، لأن العقل يدرك ظواهر الأمور، أما اللبّ وهو القلب

المنوّر بنور الله تعالى فهو يدرك بواطن الأمور، ويتعرف إلى حقائقها وأسرارها وحكمها، ولهذا وصفهم سبحانه ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لأنهم اخترقوا الحجب الظاهرة العقلية حتى وصلوا إلى لباب الأمور.

ثم ذكر سبحانه صفة أولي الألباب فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ وهل يذكرونه قليلاً أم كثيراً ؟. قال سبحانه: ﴿قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي: أنهم دائماً على ذكر الله تعالى، فإن قاموا ذكروا الله تعالى، وإن جلسوا ذكروا الله تعالى، وإن مشوا ذكروا الله تعالى، وإن اضطجعوا ذكروا الله تعالى، فهم دائماً على ذكر لله تعالى.

واعلم أن ذكر الله تعالى حقّ لله على عباده المؤمنين، وهو ألا ينسوا ذكر الله تعالى، وأن يحفظوا ذكر الله تعالى فيحفظهم الله تعالى، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «احفظ الله يحفظك»[1] فمن جملة الحفظ؛

---

(١) طرف من حديث طويل رواه الإمام أحمد في المسند=

أن تحفظ ذكر الله تعالى ولا تنسى ذكره. ويقول تعالى في أهل الجنة: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ أي: كثير الرجوع إلى الله تعالى في أوقات غفلة الناس عنه سبحانه ﴿حَفِيظٍ﴾ [ق: ٣٢] وهو الذي حفظ الله تعالى فلم ينسه، وذكره فلم ينس ذكره، وحفظ دينه وشرعه بأن امتثل أمره وانتهى عن نهيه سبحانه.

وذِكْر الله تعالى حقّ إيمانيّ على كل مؤمن، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «من قعد مقعداً لم يذكر الله تعالى فيه كانت عليه من الله ترة، ومن اضطجع مضطجعاً لا يذكر الله تعالى فيه كانت عليه من الله ترة»[1] ومعنى ترة: أي: نقصاً وتَبِعةً.

وفي رواية: «ما مشى أحد مَمْشى لم يذكر الله فيه

= (١/ ٢٩٣) والترمذي في كتاب صفة القيامة (٢٥١٨) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(١) رواه الإمام أبو داود في كتاب الأدب (٤٨٥٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

إلا كان عليه ترة»[1].

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي: في كل حالاتهم ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: وما احتوت عليه السماوات من كواكب ونجوم وشموس، وآيات كبيرة، وكذلك الأرض وما فيها من آيات قُدرة الله تعالى. وبعد هذا التفكر ينتهي بهم الأمر إلى أنهم يُوقنون أن الله تعالى لم يخلق هذه المخلوقات عَبثاً، أو هملاً دونما حكمة من وراء هذا الخَلْق، ولا بد من يوم ترجع فيه الخلائق إلى الله تعالى، حتى يميز الخبيث من الطيب، ويجزي المحسن ويعاقب المسيء، وهذا هو يوم القيامة، يوم يقوم الناس لرب العالمين، ولذلك قالوا بعد التفكر: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا﴾ أي: هذا الخلق الكبير ﴿بَـٰطِلًا﴾

---

(١) كما في شعب الإيمان للبيهقي (٥٤٣) وينظر المسند للإمام أحمد (٢/ ٤٣٢)وصحيح ابن حبان.

أي: دونما حكمة ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ أي: تَنزهت وتعاليت عن ذلك، بل لابد من الرجوع إليك، ولابد من يوم القيامة ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

فقد استدل هؤلاء على حقيّة الآخرة من خلال تفكّرهم في خلق الله الكبير، من سماوات وأرض وأفلاك وما فيها، فهذا خَلْق كبير مُحكم، ظهرت فيه قدرة الله تعالى، وحاشا الله القدير أن يخلق شيئاً نفيساً ثميناً بديعاً ثم بعد ذلك يُخرّبه لا إلى نتيجة، بل لابد أن وراء هذا العالم عالماً آخر، وأنَّ هناك حِكَماً، وهذا معنى إخباره سبحانه عنهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا﴾ أي: بل خلقته بالحق وللحق والكمال، وخلقته مُحكَماً. فقد حملهم هذا التفكر على زيادة معرفتهم وإيمانهم بقدرة الله تعالى وحكمة الله تعالى.

وقد قال سبحانه وهو الله الحق، الذي لا يخلق إلا بالحق والحكمة، وللحق والحكمة قال: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ

﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ [المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦].

ثم قال سبحانه في وصف هؤلاء المقربين: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ﴾ وهذا المنادي هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي نادى العقلاء ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ الذي خلقكم، وخلق آباءكم مِن قبلكم، وخلق لكم هذه المخلوقات، وخلق السماوات والأرض، ولابُد لكل مخلوق من خالق، ولكل مربوب من ربٍّ، كما لابدّ لكل مصنوع مِنْ صانع، ولكل بِنَاءٍ من بانٍ، ولذلك كان موقف العقلاء مع هذا النداء المحمدي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإيمان بالله تعالى أن قالوا: ﴿فَـَٔامَنَّاۚ﴾ أي: صدقنا وأيقنّا بوجود الله الذي هو ربنا ورب كل شيء، وشهدنا بذلك.

ثم راحوا يسألون الله المغفرة: ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ أي: واجعلنا

مع الأبرار ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ فلمّا آمنوا بربهم الذي دعاهم رسوله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإيمان به، ودعوا ربهم، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: حصّل لهم الإجابة وحقّق ما دعوه ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ وهذا لعموم أهل الإيمان. ثم خص المهاجرين بالذكر: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ وهذا تخصيص بعد تعميم، فبعد أن ذكر سبحانه جميع طبقات أهل القرب، وأولي الإيمان على مراتبهم، خصّ المهاجرين بالذكر لأنهم من أفضل أهل المراتب عند الله تعالى.

وفي الحديث[1] عن السيدة أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنها قالت: يا رسول الله لا أسمع الله تعالى ذكر النساء في الهجرة. أي: ذكر المهاجرين ولم يذكر المهاجرات، وقد كانت رضي الله عنها من المهاجرات. فأنزل الله عز وجل: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾.

وكم للسيدة أم سلمة رضي الله عنها من مطالبات لمثل هذه الأمور فقد قالت[2] يوماً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما لنا لا نُذكر في القرآن كما يُذكر الرجال ـ أي: من أهل الإيمان ـ قالت: فلم يَرُعني منه يومئذ إلا ونداؤه على المنبر ـ لأنه صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا خطب أسمع أهل المدينة كلهم، كما

---

(١) كما في سنن الترمذي في كتاب تفسير القرآن
وروواه الحاكم في المستدرك يعلى في مسنده (٣٠٢٦).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٦/ ٣٠١).

ورد[1] أنه صلى الله عليه وآله وسلم نادى حتى أسمع العواتق في بيوتهن، وهذه من معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم ـ قالت: وأنا أُسرّح شعري، فلففت شعري، ثم خرجت إلى حجرة من حجَر بيتي، فجعلت سمعي عند الجريد ـ أي: أفنان النخل وعيدانه ـ فإذا هو يقول عند المنبر: يا أيها الناس إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقد قدّم الله تعالى ذكر المهاجرين على الأنصار،

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٤/٤٢٤) من حديث سيدنا أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه.

وعلى مَن تبعهم مِنْ بعدُ، فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي: الذين جاؤوا من بعد المهاجرين والأنصار، وهم التابعون وأتباعهم إلى يوم الدين ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ فقد سجّل سبحانه لهم الرضا ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠] فلقد قدّم سبحانه ذكر المهاجرين على الأنصار لفضلهم، إذ إنّ الهجرة رفعت مقامهم على غيرهم، فكان المهاجرون أفضل من الأنصار من حيث الجملة.

وقال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ أي: يوم غزوة تبوك التي قاسى فيها الصحابة الشدائد والأهوال ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ إلا أنه لم يحصل ذلك لأن الله تعالى ثبّتهم وأيدهم وأمدّهم ببركة

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأنزل الغيث من السماء، وحلّت البركة في أزواد القوم ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

فقوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ أي: توبة خاصة، والتوبة لا تقتضي صدور ذنب معيّن من العبد، لأنّ توبة الله معناها: رجوعه سبحانه بالمغفرة والإحسان والرضوان على عبده الذي تاب عليه ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ وقد قرن سبحانه ذكرهم بذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تشريفاً لهم وتكريماً، وقدّم ذكر المهاجرين على الأنصار لفضلهم رضي الله عنهم أجمعين.

وممّا تقدّم من الآيات التي قدّم سبحانه فيها ذكر المهاجرين على الأنصار، وما أثبت سبحانه من الرضوان عليهم، يتبين لك فضل الهجرة، وأنّ الصحابة رضي الله عنهم لما استقرّ رأيهم على أن يكون مبدأ تاريخ الإسلام هو الهجرة إنّما عَنوا هذه الأمور،

لأنّ الهجرة تضمنت معاني كبرى ومُثُلاً عليا، وتضمنت حقائق إيمانهم بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، واشتملت على مراتب انطوت تحتها، فالذي هجر داره وماله وعياله إلى الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم قد هجر الذنوب والخطايا، وقدّم المأمورات، وآثر حبّ الله ورسوله على ما سواهما من باب أولى.

وروى الإمام مسلم في صحيحه[1]، عن ابن شماسة المهريّ قال: حَضَرْنا عمرو بن العاص رضي الله عنه وهو في سياقة الموت فبكى طويلاً، وحوّل وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه أمَا بشّرك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكذا، أمَا بشَّرك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكذا؟

فأقبل بوجهه فقال: إنّ أفضل ما نعدّ شهادة أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) حديث عمرو بن العاص في كتاب الإيمان (١٢١) واللفظ له، وهو عند الإمام أحمد مختصراً (٤/ ٢٠٥).

وسلم، إني كنت على أطباق ثلاث ـ أي: أحوال ثلاث ـ لقد رأيتني وما أحد أشدّ بُغضاً لرسول الله منّي، ولا أحبّ إليّ أن أكون قد استمكنت منه فقتلته، فلو متّ على تلك الحال لكنت من أهل النار، فلمّا جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك. فبسط يمينه.

قال: فقبضت يدي، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما لك يا عمرو» ؟

قال: قلت: أردت أن أشترط ـ أي: أبايعك على الإسلام ولكن بشرط ـ.

قال: «تشترط بماذا» ؟ قلت أن يُغفَر لي.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أَمَا علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله» أي: يهدم الذنوب قبله كلها، «وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها» أي: من الذنوب، «وأن الحج يهدم ما كان قبله» لكن بالشرط المعروف وهو: أن يكون الحج لله تعالى كما جاء في الحديث: «من حجّ

لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[1].

ومن هذا يتبين لك أنّ الهجرة قد هدمت جميع ذنوب المهاجرين، لأنهم هاجروا إلى الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال[2]: (وما كان أحد أحبّ إليّ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا أجلّ في عيني منه، وما كنتِ أطيق أنْ أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سئلتُ أن أصفه ما أطقت، لأني لم أكن أملأ عينيّ منه، ولو متّ على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة. ثم وَلَيْنا أشياء ما أدري ما حالي فيها).

وفي مسند أحمد[3] (ثم تلبّست بعد ذلك بالسلطان وأشياء فلا أدري عليّ أم لي) أي: لعلّ له ذنوباً صدرت

---

(١) رواه الإمام البخاري في كتاب الحج (١٥٢١) ومسلم (١٣٥٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أي: سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٣) (٤/ ١٩٩).

منه بعد أن شهد ما شهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أو ربما صدرت منه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال: (فإذا أنا مِتّ فلا تصحبني نائحة ولا نار ـ أي: كعادات الجاهلية ـ فإذا دفنتموني فشنّوا[1] عليّ التراب شنّاً، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تُنحر جزور ويُقسَم لحمها ـ أي: قدر نحر جمل وتوزيعه ـ حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي) أي: وأستأنس بكم حين سؤالهم لي.

وقد بيّن صلى الله عليه وآله وسلم عظمة مقام الهجرة فقال: «لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار»[2] أي: ولكن الهجرة لها فضلها.

---

(١) صبوا.

(٢) طرف من حديث رواه البخاري في المغازي (٤٣٣٠) ومسلم في الزكاة (١٠٦١) عن سيدنا عبد الله بن زيد رضي الله عنه والإمام الترمذي في سننه في كتاب المناقب والإمام الدارمي في سننه في كتاب السير والإمام ابن ماجه في سننه في المقدمة.

ولقد هاجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، مما يدلّ على أفضلية الهجرة، وأن المهاجرين من حيث الجملة هم أفضل من الأنصار؛ ولكلٍّ منهم فضله. وقد مدحهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأثنى على المهاجرين والأنصار.

ولا شك أن المهاجرين والأنصار هم أفضل أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك مدحهم الله تعالى ومدحهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فمن ذلك: لما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من الغنائم الخير الكثير، وذلك يوم حنين، وهذا بعد فتح مكة بقليل، فقسمها صلى الله عليه وآله وسلم، وأعطى قسماً كبيراً للذين أسلموا يوم فتح مكة، لأنهم حديثو عهد بإسلام، فأعطاهم تمكيناً وتثبيتاً لهم، وأعطى الأنصار، ولكن أقل مما أعطى أولئك.

روى الإمام البخاري[1] في صحيحه، عن أنس بن

---

(١) كتاب فرض الخمس (٣١٤٧)، ومسلم في كتاب الزكاة (١٠٥٩)، ومسند الإمام أحمد (٣/ ١٦٦).

مالك رضي الله عنه، أن أناساً من الأنصار قالوا لرسول الله حين أفاء الله على رسوله من أموال هَوازن ما أفاء، فطفق يُعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل فقالوا: يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُعطي قريشاً ويدعُنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم !!! ـ ومرادهم بقريش مَنْ أسلم يوم الفتح ـ.

قال أنس رضي الله عنه: فحُدِّث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمقالتهم، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قُبة من أدم ـ أي: جلد ـ ولَم يَدْعُ معهم أحداً غيرهم. فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «ما كان حديث بلغني عنكم»؟ قال له فقهاؤهم: أمّا ذوو آرائنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً ـ أي: بل عرفوا أن فعلك هو عين الحكمة ـ وأمّا أناس مِنّا حديثة أسنانهم فقالوا: يَغفر الله لرسول الله يُعطي قريشاً وسيوفنا تقطر من دمائهم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني

لأُعطي رجالاً حديث عهدهم بكفر» أي: وإن كان غيرهم أحقّ منهم لكن أعطيهم تأليفاً وتثبيتاً لهم «أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال ـ أي: من الغنائم ـ، وترجعوا إلى رحالكم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم» أي: أما ترضون أن يكون حظكم وغنيمتكم هو أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معكم؟ «فوالله ما تنقلبون به خيرٌ مما ينقلبون به».

قالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا.

فقال لهم: «إنكم سترون بعدي أَثَرة شديدة» أي: استئثاراً بأموال الدنيا «فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ﷺ على الحوض» وذلك لأنه صلى الله عليه وآله وسلم يتلقّى ويستقبل أتباعه حين يَرِدُون على الحوض، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إني فرط لكم وأنا شهيد عليكم»[1]

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٤/ ١٤٩) والبخاري في كتاب الجنائز (١٣٤٤) ومسلم في الفضائل (٢٢٩٦) عن سيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه.

أي: أنا سابقكم ومنتظركم ومستقبلكم على الحوض.

ومن جملة ما مدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم به الأنصار أن خطب قُبيل وفاته وقال: «أوصيكم بالأنصار فإنهم كَرِشي وعيبتي»[1] فقد أنزلهم صلى الله عليه وآله وسلم منزلة بضعة منه، وأنهم موضع سرّه وأمانته صلى الله عليه وآله وسلم. ولما فتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة قال: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن ألقى السلاح فهو آمن وأغلق بابه فهو آمن**».

فقالت الأنصار: أمَّا الرجل فقد أخذته رأفة بعشيرته، ورغبه في قريته ـ أي: لعله عَدل عنكم يا معشر الأنصار، ورأف بعشيرته وهم أهل مكة، ورغب أن يبقى في بلدته مكة، ولا يرجع إلى المدينة ـ فقد

---

(١) أي: جماعتي وخاصتي الذين أثق بهم، وأعتمدهم في أموري. والحديث رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار (٣٨٠١) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة (٢٥١٠) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه والترمذي في سننه في كتاب المناقب.

تخوّفوا من أن يبقى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مكة، وقد قالوا ذلك حباً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحرصاً على مجاورته، ولم يقولوا ذلك انتقاداً أو اعتراضاً.

ونزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: «قلتم: أما الرجل فقد أخذته رأفة بعشيرته ورغبة في قريته، ألا فما اسمي إذاً ـ ثلاث مرات ـ أنا محمد عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم، والممات مماتكم» أي: الحياة التي سيعيش بها بقية عمره الشريف ستكون في المدينة، وسيتوفى في المدينة صلى الله عليه وآله وسلم.

قالوا: (والله ما قلنا إلا ضناً بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم)، أي: حرصاً عليك يا رسول الله، فنفوسنا بك شحيحة، وما نفرط فيك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا نؤثر فيك غيرنا، فنحن عليك حريصون بل وضنينون، ولا نرضى أن تميل إلى غيرنا وتبقى عند غيرنا.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «فإن الله ورسوله يُصدّقانكم ويعذرانكم»[1] أي: أنتم معذورون، لأنّ المحب حريص على محبوبه كل الحرص، وهكذا يجب أن يكون موقفكم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو الحرص عليه والرغبة فيه صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد يُشكل على بعض الناس أنه كيف علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه سيتوفى في المدينة، والآية تقول: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

فيقال له: ليس هناك إشكال أو تناقض، وإنما سوء الفهم وقلة العلم قد يوقعان الإنسان في الجهل والضلالة. فقوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أي: وما تدري نفس مِنْ ذاتها بأيّ أرض تموت، ولكن

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٥٣٨) ومسلم في كتاب الجهاد والسيّر (١٧٨٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

إذا أدْراها الله تعالى وأعلمها فهي تعلم عندئذ.

وقد أطلع الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم على كثير من المغيّبات، ومن جملتها أنّ وفاته ستكون في المدينة المنورة، وأطلعه الله تعالى على موضع قبره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي»[1].

وفي رواية صَحّت عند المحققين من كبار المحدثين: «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة»[2].

---

(١) رواه الإمام البخاري في كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (١١٩٦)، والإمام مسلم في كتاب الحج (١٣٩١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه والإمام مالك في الموطأ في كتاب النداء للصلاة.

(٢) كما في مسند الإمام أحمد (٣/ ٦٤) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وينظر مجمع الزوائد (٤ / ٦).
وسنن النسائي الكبرى ومصنف ابن أبي شيبة ومسند أبي يعلى.
وسنن البيهقي الكبرى ومسند البزار ومعجم الطبراني الأوسط.

ويدلّ على هذا أيضاً قوله صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين ودّعه وهو ذاهب إلى اليمن: «يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، أو لعلك أنت تمر بمسجدي هذا أو قبري» فبكى معاذ رضي الله عنه جشعاً لفراق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم التفت صلى الله عليه وآله وسلم فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال: «إن أولى الناس بي المتقون مَنْ كانوا وحيث كانوا»[1].

وجميع هذا من باب الإخبار عن المغيّبات التي أطلع الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم عليها، وهي مِن دلائل نبوته صلى الله عليه وآله وسلم.

فتأمل أيها العاقل في بقعة جاورت قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ووطئها بأقدامه الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهي: ما بين بيته ومنبره

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٢٣٥) عن سيدنا معاذ رضي الله عنه ورواه البيهقي في سننه الكبرى وابن حبان في صحيحه. وينظر مجمع الزوائد (٩/ ٢٢).

الشريفين صلى الله عليه وآله وسلم ـ والتي نالت من الشرف والمكانة ما نالت، حتى صارت روضة من رياض الجنة، وماذاك إلا لأنها جاورت تلك البقعة الطاهرة، التي ضمّت جسم أشرف خلق الله تعالى.

فمن دخل روضته صلى الله عليه وآله وسلم مُخلصاً، وصلّى ودعا فقد دخل روضة من رياض الجنة، وَمَنْ دخل في رياض الجنة فلابدّ أن ينتهي إلى الجنة ويأوي إليها؛ مادام مخلصاً محبّاً لله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم. وإن عُلوّ الجنة في الفضل والمكانة لا يدخل تحت الحساب والتقدير، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لقاب قوس أحدكم أو موضع قدم من الجنة خير من الدنيا وما فيها»[1] فاعتبر من هذا أنه إذا كانت البقعة المجاورة لبيت رسول الله صلى الله عليه

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٢٦٤)، والبخاري في كتاب الزكاة (٦٥٦٨) عن سيدنا أنس رضي الله عنه وابن حبان في صحيحه.

وآله وسلم وقبره نالت من الفضل والنور ما نالت، فما عليك إلا أن تجاور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقلبك، وأن تُقَرِّب قلبك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بل وأسكَن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قلبك، وليكن قلبك بيتاً من بيوت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحجرة شريفة من حجراته صلى الله عليه وآله وسلم، تَحلّ فيها محبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإنّ شَرَف المنازل على شرف نازلها، وإنّ قلب المحبّ سكنٌ للمحبوب، فإذا أردت أن تنال الجوار الذاتيّ فأسكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قلبك، وأسكن المحبوب في دار قلبك، حتى تحلّ فيه الطمأنينة والسكينة إلى أبد الآبدين. وحين ذاك يقال عنك:

سكن الفؤادَ فعش هنيئاً يا جسد

هذا النعيم هو المقيم إلى الأبد

أي: سكن المحبوب في فؤادك فنلتَ نعيم الأبد،

ولذلك فإن قلوب المحبين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأرواحهم هي أقرب إلى ذات النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الحجرات الشريفة التي ضمّت جسده الشريف صلى الله عليه وآله وسلم؛ مع ما للحجرات من قدسية ومكانة.

ونسأل الله تعالى أن ينفعنا ببركات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبركات قبره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم.

وَمَنْ جعل قلبه سكناً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حلّت فيه أنواره صلى الله عليه وآله وسلم وأسراره وفيوضاته الكريمة، وصار صاحب هذا القلب أهلاً لأن يحلّ ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين



المحاضرة الخامسة:

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

لقد كان لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مناقب وخصائص اختصّوا بها دون غيرهم من الأمة، ولقد امتدحهم الله تعالى، وأثنى عليهم، وذكرهم بالفضائل والمقامات في عِدّة آيات من القرآن الكريم، والتي تقدّم ذكر بعضها.

ولقد أثنى سبحانه على الصحابة عامة، وعلى المهاجرين والأنصار خاصة.

أما المهاجرون فهم: الذين هاجروا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة قبل فتح مكة، وأما الأنصار فهم: أهل المدينة الذين نصروا الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال تعالى في الثّناء على جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمن فيهم الأنصار والمهاجرون، ويشمل مَنْ لم ينل فضل الهجرة بأن أسلم بعد الفتح، أو قبل الفتح ولم تتيسّر له الهجرة قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

وهذا مدح عامّ لجميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. كما مدح سبحانه المهاجرين والأنصار مدحاً خاصّاً، وأثنى عليهم ثناءً خاصاً، وأثبت لهم مراتب ومقامات خاصة، فأثبت لهم سبحانه

كمال الإيمان، وحقيقة الإيمان، وأثبت لهم كمال الرضوان، وكمال الإحسان، وأثبت لهم صدق الهجرة، وصدق النصر لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم. وإليك تفصيل ذلك:

أما شهادته سبحانه للمهاجرين والأنصار بكمال الإيمان ونيل حقيقته، فقد قال سبحانه في آخر سورة الأنفال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢] ثم قال سبحانه في الآية بعدها: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ الآيات [الأنفال: ٧٤] فلقد نزلت هذه الآيات في بيان فضل المهاجرين والأنصار، وبيّن سبحانه فيها أحكاماً خاصة بالمهاجرين والأنصار، فأثبت لهم أولاً الإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وأثبت لهم الهجرة

﴿وَهَاجَرُوا۟﴾ أي: وهجروا كل شيء في سبيل الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى هجروا أنفسهم مهاجرين إلى الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وأثبت لهم صدق الجهاد ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟﴾ وهم الأنصار الذين آووا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وَمَنْ معه من المهاجرين، ونصروا الله ونصروا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فشهد لهم سبحانه بالنصر لله ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي: بعضهم إخوة لبعض، وبعضهم أحباب بعض، وبعضهم ورّاث بعض، فأثبت لهم سبحانه الميراث فيما بينهم، مع أنه ليس بينهم النسب ولكن بينهم السبب.

وفي هذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: آخى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين أصحابه، فكانوا

يتوارثون بذلك، حتى أنزلت: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ الآية [الأنفال: ٧٥]، فتوارثوا بالنسب[1].

وقال ابن كثير في تفسيره: قال ابن عباس رضي الله عنه: كان المهاجري يَرِثُ الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه، للأخوة التي آخى بينهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. اهـ

وبعد أن فتح الله على المسلمين الغنائم نَسخ هذا الحكم بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ فأثبت لهم أولاً الميراث، وعقد بينهم الأخوة، وشدّ أزر الأخوة التي آخاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بينهم، ثم نسخ حكم الميراث بينهم. وهذا لأنه صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن مضت مدة قليلة على هجرته إلى المدنية، قيل: خمسة أشهر، وقيل أقل وقيل أكثر،

---

(١) رواه أبو داود الطيالسي في مسنده ص (٣٤٩) حديث رقم (٢٦٧٦)، والطبراني وسنن البيهقي الكبرى وسنن الدارقطني ينظر مجمع الزوائد (٧/ ٢٨).

آخى بين كل مهاجري وأنصاري، وعقد بينهما الأخوة التي كان من جملة حقوقها الميراث، ونزل القرآن يَشدّ عزم هذه الأخوّة ويقوّيها ويثبّتُها ويدعمها.

ولمّا آخى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين كل مهاجري وأنصاري كان موقف الأنصار مع المهاجرين أَنْ أنزلوهم مِنْ نفوسهم بمنزلة نفوسهم. وهذا مقام كبير.

قال الإمام البخاري رضي الله عنه في صحيحه[1]: باب إخاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين المهاجرين والأنصار. وقال: باب الإخاء والحِلف، وقال أبو جحيفة: آخى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين سلمان وأبي الدرداء رضي الله عنهما، وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: لما قدمنا المدينة آخى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بيني وبين سعد بن الربيع. اهـ

ولمّا آخى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين

---

(١) في كتاب مناقب الأنصار (١١٢/٧) حديث رقم (٣٧٨٠).

الأخوين، كان الأخ الأنصاري يشاطر أخاه بنصف ماله، ويُنزله في داره، وينزله من نفسه منزلة نفسه.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قدم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، وكان سعدٌ ذا غنى، فقال لعبد الرحمن رضي الله عنه: أقاسمك مالي نصفين وأزوجك.

وفي رواية الترمذي[١]: فقال له: هلمّ أقاسمك مالي نصفين، ولي امرأتان فأطلق إحداهما فإذا انقضت عدتها فتزوجْها.

وفي رواية النسائي[٢]: فقال له سعد رضي الله عنه: إنّ لي مالاً فهو بيني وبينك شطران، ولي امرأتان فانظر أيهما أحب إليك، فأنا أطلقها، فإذا حلّت فتزوجْها

---

(١) في كتاب البر والصلة /١٩٣٤/.

(٢) في آخر كتاب النكاح (٦/ ١٣٧).

ـ وكان هذا قَبل نزول آية الحجاب، فقد نزلت في السنة السادسة من الهجرة ـ.

قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلّوني على السوق، فما رجع حتى استفضل أَقِطاً[1] وسمناً، فأتى به أهل منزله، فمكثنا يسيراً أو ما شاء الله، فجاء وعليه وَضَرٌ من صفرة ـ أي: أثر من طيب له لون ـ فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «مهيم»[2]؟.

قال: يا رسول الله تزوجت امرأة من الأنصار.

قال: «ما سقتَ إليها»؟.

قال: نواةً من ذهب، أو وزن نواة من ذهب.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أَوْلِمْ ولو بشاة»[3].

أي: وليمة العرس. ففعل رضي الله عنه.

---

(١) الأقط: شيء يُتخذ من اللبن المخيض، يُطْبَخ ثم يترك حتى يُمصَل.

(٢) كلمة يمانية معناها: ما أمرك ؟ وما هذا الذي أرى بك؟

(٣) رواه البخاري في أول كتاب البيوع (٢٠٤٨) و(٢٠٤٩).

وفي رواية[1]: قال له صلى الله عليه وآله وسلم: «بارك الله لك. أَوْلِمْ ولو بشاة».

وفي رواية: قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: رآني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعليَّ بشاشة العرس، فقلت: تزوجت امرأة من الأنصار.

قال: «كم أصدقتها»؟، قال: زنة نواة من ذهب[2].

قال: عبد الرحمن رضي الله عنه: فلقد رأيتني ولو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب ذهباً وفضة[3]. وذلك من أثر دعوة الرسول ﷺ له بالبركة.

ونظيره عروة البارقي رضي الله عنه، ففي الحديث

---

(١) عند البخاري في كتاب النكاح، باب كيف يدعى للمتزوج (٥١٥٥) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٢) عند النسائي في كتاب النكاح (٦/ ١٢٠).

(٣) كما في مسند الإمام أحمد (٣/ ٢٧١) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

عنه قال[1]: عَرَض للنبي صلى الله عليه وآله وسلم جَلَبٌ ـ أي: المتاع المجلوب من الخارج إلى البلدة ـ فأعطاني ديناراً وقال: «أي عروة ائت الجلب فاشترِ لنا شاة» فأتيت الجلب فساومت صاحبه، فاشتريت منه شاتين بدينار، فجئت أسوقهما، أو قال: أقودهما، فلقيني رجل فساومني فبعته شاة بدينار، فجئت بالدينار وجئت بالشاة، فقلت: يا رسول الله هذا ديناركم وهذه شاتكم، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وصنعت كيف»؟ قال: فحدثته، فقال: «اللهم بارك له في صفقة يمينه». فلقد رأيتني أقف بكناسة الكوفة ـ موضع بالكوفة ـ فأربح أربعين ألفاً قبل أن أصل إلى أهلي.

وفي رواية: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أعطاه ديناراً يشتري له به شاة، فاشترى له به شاتين، فباع إحداهما بدينار وجاءه بدينار وشاة، فدعا له

---

(١) كما في مسند الإمام أحمد (٤/ ٣٧٦).

بالبركة في بيعه، وكان لو اشترى التراب لربح فيه[1].

قال الصحابي أبو جحيفة رضي الله عنه: وآخى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين سلمان وأبي الدرداء رضي الله عنهما[2]. فكان بينهما أخوة خاصة فوق الأخوّة الإيمانية العامّة، إذ المؤمنون كلهم إخوة بموجب إيمانهم، ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آخى بين المهاجرين والأنصار أُخوة خاصة فصارت بمنزلة الأخوة لأم وأب، وزادت الحقوق.

ولما آخى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين سلمان وأبي الدرداء رضي الله عنهما كان سلمان يكثر من الزيارة لأبي الدرداء رضي الله تعالى عنهما.

---

(١) كما في مسند الإمام أحمد حديث عروة بن أبي الجعد (٤/٣٧٥)، وصحيح البخاري كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦٤٢)وسنن أبي داود كتاب البيوع.

(٢) كما في البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب كيف أخى النبي ﷺ بين أصحابه.

فعن أبي جحيفة[1] رضي الله عنه قال: آخى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين سلمان وأبي الدرداء رضي الله عنهما، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذّلة ـ أي: رثّة الهيئة لابسة ثياب المهنة والعمل ـ فقال لها: ما شأنك ؟

قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا ـ تعني: أن زوجها أبا الدرداء زاهد في الدنيا بمن فيها من زوجة ومال، ومنصرف إلى العبادة. وهذا كله قبل نزول آية الحجاب ـ.

فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً فقال: كل، قال: فإني صائم.

قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، ـ والوقت ليس رمضان ـ.

---

(١) رواه الإمام البخاري في كتاب الصوم (١٩٦٨)، والترمذي في آخر كتاب الزهد (٢٤١٥).

قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم ـ أي: يصلي ـ قال: نم فنام، ثم ذهب يقوم فقال: نم، فلمّا كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصلّيا فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حقّ حقه. فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فذكر ذلك له، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «صدق سلمان».

وفي رواية الترمذي: فأتيا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فذكرا ذلك، فقال له: «صدق سلمان».

أي: لا يشغلنك حقّ عن حقوق، ولا تُغفل حقوقاً بالانشغال في حقّ واحد. فالمؤمن مطالب بحقوق عليه أن يؤديها كلّها، ويقوم بمقتضاها، لاسيّما حق الزوجة مِنْ حسن المعاشرة، وحسن الخلق معها، ويتأكّد هذا على من كان عنده زوجتان أو أكثر، فهو مطالب بالعدل بينهن في المسكن والملبس والطعام والمعاشرة.

وقد جاء في الحديث: الوعيد الشديد لمن لا يَعدل

بين زوجاته. فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا كان عند الرجل امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقّه ساقط»[1].

وفي رواية: «مَنْ كانت له امرأتان يَميل لإحداهما على الأخرى جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط»[2].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[3].

أما مَنْ كان خيره وحسن خلقه وحلو كلامه منصرفاً إلى الناس فقط، لكنه مَعْ زوجته وعياله شحيح بخيل عابس سيئ الخلق والمنطق، فليس هذا من البرّ، ويدل على نقص كبير في الإيمان.

---

(١) رواه الترمذي في كتاب النكاح (١١٤١).

(٢) كما في مسند الإمام أحمد (٢/ ٣٤٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه وسنن ابن ماجه كتاب النكاح وصحيح ابن حبان.

(٣) رواه الإمام الترمذي في كتاب المناقب (٣٨٩٢) عن السيدة عائشة رضي الله عنها والإمام ابن ماجه في سننه في كتاب النكاح وابن حبان في صحيحه.

ولقد شهد سبحانه بالإيمان الكامل الحق للمهاجرين والأنصار، وسجّل ذلك لهم، وثبّته في دواوين عالم الدنيا، ودواوين الملأ الأعلى، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

فهذه شهادة من رب العالمين للمهاجرين والأنصار بأنهم نالوا الإيمان الحق. وهل تعلم ما هو الإيمان الحق؟

إنه يجب عليك أن تتعرف إليه حتى لا تدعي الإيمان الكامل الحق؛ وحالك يخالف ذلك؛ ولكي تعلم ذلك فاعلم أن لكل حق حقيقة، ولكل قول صادق مصداقاً.

أما حقائق الإيمان الحق فقد ذكرها سبحانه في أول سورة الأنفال فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ

وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ـ٤] اللهم ألحقنا بهم آمين.

والمعنى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: حق الإيمان. فَمَنْ هُمْ وما هي صفاتهم ؟ فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: إنْ هم ذُكِّروا بالله أو ذُكِر الله على مسامعهم أخذ قلوبَهم الوجلُ والخشيةُ والمهابةُ من رب العالمين، لأنه سبحانه له الكمال المطلق، والعظمة والكبرياء والعزّة، وهو ذو الجلال والإكرام، وذلك لأنّه لا أعظم عند هؤلاء من الله تعالى، ولا أكبر منه ولا أجلّ منه سبحانه، فلذلك إذا ذكر الله تعالى هابوه وخافوه، ووقفوا موقف التعظيم والإجلال لذي الجلال والجمال.

وقد جاء قوله تعالى: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ليبيّن أنّ الوجل والخشوع قد اعترى قلوبهم، وليس قوالبهم وظواهرهم دون قلوبهم، ومتى خشع القلب وانكسر لسلطان الله تعالى ظهر أثر ذلك على الجوارح.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ أي: أصغوا وسمعوا، وسرت روح القرآن الكريم في قلوبهم، فزادتهم آياته إيماناً بالله ومعرفة به سبحانه، كما أنّ قلوبهم تجد الراحة والنعيم بسماع آيات الله تعالى، وتنشرح صدورهم وتطمئن نفوسهم. وإنَّ مَنْ يضيق قلبه ويملّ من سماع آيات الله تعالى، وإذا سمع الملاهي الباطلة والأغاني المحرمة فإنه يرتاح ولا يملّ، فهذا دليل على ضعف كبير في إيمانه، وربما دلّ على النفاق.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: لأنه ربهم ومالكهم وخالقهم ومُمِدّهم، وقد آمنوا بذلك حق الإيمان، فلا

يعتمدون على نفوسهم، ولا على شيء آخر من الأسباب، وإنما يتوكلون على الله وحده، ويعلمون أنه سبحانه هو الفعّال وهو المسبّب، فيتعاطون الأسباب على أنها أسباب؛ لا على أنها أرباب، ويعلمون أن لا تأثير للسبب من ذاته، ولكن المؤثر في السبب هو الله تعالى.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: يأتون بها مستقيمة لا اعوجاج فيها، فهي مستقيمة في أدائها وآدابها وسننها، وهي مستقيمة بحضور القلب فيها مع الله تعالى، والخشوع له سبحانه ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: رزقناهم المال فهم ينفقون منه ويوسّعون على صاحب العيال، ورزقناهم الجاه فهم يُساعدون الناس بوجاهتهم، ورزقناهم السمع فهم يساعدون الأصم في السماع، ورزقناهم البصر فهم ينفقون منه على من لا يُبْصِر؛ بعونه وهديه إلى ما ينفعه، ورزقناهم القوة فهم يساعدون الضعيف... وهكذا ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ولا يبخلون.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ وذلك لأن عندهم حقائق إيمانية تُثبت لهم هذا الإيمان الحق، لأنّ الإيمان تحقُّقٌ وليس مجرّد دعوى، وقد تحقّق هؤلاء بهذه الحقائق فصار إيمانهم حقّاً.

ومما يدل على هذا ويؤكده، ما جاء في الحديث الذي رواه أبو نعيم في الحلية[1] عن أنس رضي الله عنه أن معاذ بن جبل رضي الله عنه، دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «كيف أصبحت يا معاذ» ؟

قال: أصبحت مؤمناً بالله تعالى حقاً.

قال: «يا معاذ إن لكل قول مصداقاً، ولكل حق حقيقة، فما مصداق ما تقول» ؟ أي: ما هو الذي يُصدق قولك أنك مؤمن حقاً؟

فقال: يا نبي الله ما أصبحت صباحاً قط إلا ظننت

---

(١) (١/ ٢٤٢).

أني لا أمسي، وما أمسيت مساءً قط إلا ظننت ـ أي: أيقنت ـ أني لا أصبح، ولا خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى، وكأني أنظر إلى كل أمة جاثية تُدعى إلى كتابها معها نبيّها وأوثانها، وكأني أنظر إلى عقوبة أهل النار، وكأني أنظر إلى ثواب أهل الجنة في الجنة.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «عرفت فالزم» أي: اِلزم هذا المقام.

فتأمّل وتفكّر في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن لكل قول مصداقاً، ولكل حق حقيقة» فَمَنِ ادعى شيئاً ولم يصدّقه حاله فهو كاذب في دعواه، لأنّ لكل حق حقيقة لابدّ من التحقّق بها، أما الباطل فلا حقيقة له.

وإذا أردت أَنْ تفهم الفرق بين الحق والباطل، وأن للحق حقيقة، وليس للباطل حقيقة، فإليك مثالاً يوضح ذلك:

إذا كان هناك ماء نهر كبير، وتراءى لك من بعيد، فجئت إليه رأيته حقيقة، ورأيت الماء حقيقة وشربت منه.

ولكن إذا مشيت في ضحوة نهارٍ في الصيف، فإنه يتراءى لك بريق شبيه الماء، وهو السراب الذي يتراءى لك بصورة الماء، ولكنك إذا أدركته لم تجد له حقيقة، وإذا كان عقلك ناقصاً فإنك تَظلّ تجري وراء السّراب، وتظنّ أن الماء لا يزال أمامك، ولا تدري أنك تسعى وراء أمر باطل لا حقيقة له، ومن هنا تفهم أن دعواك أنّ هذا السراب هو ماء هي دعوى باطلة لا حقيقة لها، وأما لمّا تراءى لك ماء النهر من بعيد ورحت إليه ووجدته ماءً على الحقيقة، فدعواك الحق رأيت حقيقتها وهي الماء، فالحق له حقيقة، أما الباطل فلا حقيقة له كالسراب.

ولما كان الإيمان أمراً حقّاً فلا بدّ له من حقيقة يتحقّق بها مَنِ ادّعى الإيمان؛ وإلا فدعواه كاذبة.

وعن الحارث بن مالك الأنصاري[1] رضي الله

---

(١) عزاه في مجمع الزوائد (١/ ٥٧) إلى الطبراني والبزار، ورواه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٣٦٢) حديث رقم (١٠٥٩٠) و (١٠٥٩١) ورواه عبد الرزاق في مصنفه وابن أبي شيبة في مصنفه ومعمر بن راشد في الجامع.

عنه، أنه مرّ بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: «كيف أصبحت يا حارثة» ؟

قال: أصبحت مؤمناً حقاً.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «انظر ما تقول، فإنّ لكل قول حقيقة، فما حقيقة إيمانك» ؟ ـ أي: ما هي الحقيقة التي تحققت بها وانتهيت إليها؟ـ.

قال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي ـ أي: بالقيام ـ، وأظمأت نهاري ـ أي: بالصيام ـ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ـ أي: يزور بعضهم بعضاً ـ وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون ـ أي: يتصايحون ويبكون ـ.

قال: «يا حارثة عرفت فالزم».

وفي رواية[1]: وكأني أسمع عواء أهل النار.

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «مؤمن نوّر

---

(١) في شعب الإيمان للبيهقي (١٠٥٩٢)ومصنف عبد الرزاق ومصنف ابن أبي شيبة.

الله قلبه» أي: عبد نوّر الله قلبه بالإيمان والتقوى فالزم ذلك.

وعلى هذا فإن قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ﴾ أي: هم الذين انتهى بهم الإيمان إلى هذا المقام العالي، وتحقّقوا بالحقائق الإيمانية التي تُثبت صدق إيمانهم وحقيقته.

ولقد شهد سبحانه للمهاجرين والأنصار بالإيمان الحقّ الذي نالوا بفضله حقائق الإيمان، فكانوا رضي الله عنهم أهل كشف، وأهل مشاهدة ونور وبصيرة، وانكشف لهم من الأمور ما انكشف، لأنهم مؤمنون حقاً.

كما أنه سبحانه أثبت للمهاجرين والأنصار صدق المتابعة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وشهد لهم سبحانه بأنهم اتّبعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اتباعاً حقّاً، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ

ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

وإن البحث في مناقب وفضائل المهاجرين والأنصار أمرٌ يزيد في إيمان المؤمن، ويعرّفه حقائق الإيمان، ولذلك ذكَرهم الله تعالى، وذكر مناقبهم ومقاماتهم، حتى يتعرف المؤمن على صفات أهل الإيمان الحقّ، وهم أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يغترّ بنفسه، ويحمله الجهل والحماقة على أن يقيس نفسه بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد يَحمله الغرور بنفسه إلى الظن بأن مقام المهاجرين والأنصار هو مقام سهل المنال. فاعلم أنّ مقام المهاجرين والأنصار مقام لا يُدرَك بكثرة عمل وعبادة، وإنما هو مقام خصّ الله تعالى به أصحاب رسول الله صلى

الله عليه وآله وسلم، ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: ١٠٥]. فلقد صحب هؤلاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجاهدوا معه، ونشروا دين الله في الأرض، فنالوا من المقامات ما لم ينله أحد، ولن يناله أحد.

واعلم أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هم أهل الإيمان الحق، ولذلك جعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حبّ الأنصار علامة على صدق إيمان المؤمن، فقال صلى الله عليه وآله وسلم «آية الإيمان» أي: علامة الإيمان الكامل في القلب «حُبُّ الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار»[1]. أي: ومن باب أولى أنّ آية الإيمان حبّ المهاجرين. فَلِقوّة إيمانهم رضي الله عنهم صار حبّهم إيماناً، وعلامة على الإيمان.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٣/ ١٣٠)، والبخاري في كتاب الإيمان (١٧) واللفظ له، والإمام مسلم في كتاب الإيمان (٧٤) عن سيدنا أنس رضي الله عنه والإمام النسائي في سننه في كتاب الإيمان وشرائعه والإمام ابن ماجه في المقدمة.

قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ فقد ذكر الله تعالى نبيّه في الآية ليشرّف بذكره المهاجرين والأنصار، وذلك حتى يبيّن أنهم نالوا هذا الفضل بمتابعتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،فَذَكَرَهم تبعاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعطفاً عليه تشريفاً وتكريماً لهم، ولذلك قال سبحانه في الآية الكريمة: ﴿ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾.

فالآية: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ ذكر فيها سبحانه الإمام أولاً، وهو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعطفاً عليه ذكر أتباعه رضي الله عنهم.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ فهذان اسمان سمّى الله تعالى بهما المهاجرين والأنصار، ولم يُسمّوا أنفسهم بذلك، بل الله تعالى سمّاهم بذلك، وتسمية الحق سبحانه لا تكون إلا

بالصدق والحق، لأنّك قد تُسمّي إنساناً بالفهيم، وليس هو كذلك، فتسميتك قد تطابق الحق وقد تخالفه، أما رب العالمين فحين يصف ويسمّي فإنما يصف بالحق والحقيقة، ومعنى ذلك: أنّ المهاجرين كانوا قد تحقّقوا بمقام الهجرة، فهجروا كل شيء وتوجّهوا إلى الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وكذلك الأنصار فقد سمّاهم الله تعالى بذلك، لأنهم نصروا الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد ذكّرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهذا التكريم وذلك يوم حنين، عندما فتح الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم الغنائم الكثيرة، وأعطى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أُناساً حديثي عهد بإسلام يتألّفهم بذلك، فتعجّب بعض شَباب الأنصار، كيف يعطي رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم أناساً دخلوا في الإسلام على حداثة عهد ـ بعد فتح مكة ـ ولم يُعطهم إلا القليل ـ وذلك لأنّ إيمانهم أشدّ وأقوى ـ فتشهد رسول الله ﷺ وحمد الله عز وجل ثم قال: «يا معشر الأنصار قد بلغني من حديثكم في هذه المغانم التي آثرت بها أناساً أتألّفهم على الإسلام، لعلّهم أن يَشهدوا بعد اليوم، وقد أدخل الله في قلوبهم الإسلام»، ثم قال: «يا معشر الأنصار ألم يمنّ الله عليكم بالإيمان» أي: أكرمكم بالصدق والإيمان «وخصّكم بالكرامة، وسمّاكم بأحسن الأسماء: أنصار الله وأنصار رسوله ؟ ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وسلكتم وادياً لسلكت واديكم.

أفلا ترضون أن يذهب الناس بهذه الغنائم: الشاة والنّعم والبعير، وتذهبون برسول الله» ؟ أي: ألا ترضون أن يذهب الناس ومعهم مال الدنيا، وأنتم ترجعون إلى المدينة ومعكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟

فلما سمعت الأنصار قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم قالوا: رضينا.

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أجيبوني فيما قلت».

فقالت الأنصار: يا رسول الله وجدتنا في ظلمة فأخرجنا الله بك إلى النور، ووجدتنا على شفا حفرة من النار ـ أي: كنا متباغضين متقاتلين فيما بيننا ـ فأنقذنا الله بك، ووجدتنا ضُلاّلاً فهدانا الله تعالى بك، فرضينا بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم نبيّاً، فاصنع يا رسول الله ما شئت في أوسع الحل.

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أما والله لو أجبتموني بغير هذا القول لقلت: صدقتم، لو قلتم: ألم تأتنا طريداً فآويناك، ومكذَّباً فصدَّقناك، ومخذولاً فنصرناك» أي: لما آذاك أهل مكة وجئتنا فقد آويناك ونصرناك وصدقناك «وقبلنا ما ردّ الناس عليك. لو قلتم هذا لصدقتم».

فقالت الأنصار: بل لله ورسوله المنّ والفضل علينا وعلى غيرنا - أي: ليس لنا منّة وفضل عليك، وإنّما المنة والفضل لله ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم علينا وعلى غيرنا - ثم بكوا فكثر بكاؤهم، فبكى النبي صلى الله عليه وآله وسلم معهم ورضي عنهم[1]، فكانوا بالذي قال لهم أشدّ اغتباطاً وأفضل عندهم من كل مال.

وفي مسند الإمام أحمد[2] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أتاهم فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهل، ثم قال: «يا معشر الأنصار ما قالة[3] بلغتني عنكم، وجِدَة وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلاّلاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداءً فألّف الله بين قلوبكم»؟

---

(١) عزاه في مجمع الزوائد (١٠/ ٣١) إلى الطبراني وانظر فيه (١٠/ ٢٩ و ٣٠) أيضاً.

(٢) (٣/ ٧٦)

(٣) القالة: القول الفاشي في الناس.

وفي رواية:[1] «يا معشر الأنصار ألم أَجِدْكم ضُلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألّفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي»

قالوا: بل الله ورسوله أَمَنُّ وأفضل.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار»؟.

قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله؟ ولله ولرسوله المنّ والفضل.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أما والله لو شئتم لقلتم فلصَدَقتم وصُدِّقتم: أتيتنا مكذَّباً فصدّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فأغنيناك.

أَوَجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لُعاة - أي: الشيء اليسير - من الدنيا تألّفت بها قوماً

---

(١) عند البخاري في كتاب المغازي (٤٣٣٠) ومسلم في كتاب الزكاة (١٠٦١).

ليُسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في رحالكم؟!

فو الذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شِعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ـ أي: طريقهم ـ.

اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

قال ـ أي: الراوي وهو أبو سعيد الخدري رضي الله عنه ـ: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ـ أي: ابتلّت لحاهم ـ، وقالوا: رضينا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قَسماً وحظاً. ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتفرقنا.

فانظر أيها المؤمن فيما قال لهم صلى الله عليه وآله وسلم وفيما أجابوه!! ورضي الله عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونفعنا بهم آمين.

وأما قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ فهي شهادة من الله تعالى لهم بأنهم أتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الحقيقة ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ أي: في أشد الحالات وأعسرها وأضيقها، هم اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يحيدوا عن أمره. فَمِنْ باب أولى في ساعات اليسر والرخاء.

والمراد بساعة العسرة: يوم تبوك، إذ كانت العسرة والشدة متمثلة في المركوب والمأكول والمشروب، وفي شدة الحر والعطش، وفي كثرة العدو الذي تجمهر عليهم ـ وهم الروم وَمَنْ تحالف معهم من أعراب المشركين ـ ولم يكن[1] مع الصحابة وقتئذ من البعير ما يكفيهم للوصول إلى تبوك، التي تبعد عن المدينة ما يُقارب سبعمائة كيلومتراً، فكانوا يتعاقبون على البعير، وكان الوقت صيفاً، والحر شديداً، وهم متوجهون

---

(١) ينظر سيرة ابن هشام وشرح المواهب ٦٢/٣ حول غزوة تبوك.

لقتال العدو لا للاستراحة والنزهة. ورغم هذا كله نفد زادهم وماؤهم مع شدة الحر والعطش!!! ولا يستطيع تحمّل هذا أيّ مؤمن، فرضي الله عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذين صبروا على هذه الشدائد رغبة فيما عند الله تعالى، ومتابعة لرسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: لكن قلوبهم ما زاغت، بل كادت، لكن اللهِ ثبّتهم وأيدهم ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾.

عن عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾ قال: خرجوا في غزوة تبوك الرجلان والثلاثة على بعير واحد، وخرجوا في حرّ شديد، فأصابهم يوماً عطش، حتى جعلوا ينحرون إبلهم فيعصرون أكراشها ويشربوا ماءها، فكان ذلك عسرة في الماء، وعسرة في

النفقة، وعسرة في الظهر[1] ـ أي: المركوب ـ.

وروى ابن خزيمة، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: حدثنا من شأن ساعة العسرة.

فقال عمر رضي الله عنه: (خرجنا إلى تبوك في يوم قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش، حتى ظنّنا أنّ رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إنْ كان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله إنّ الله عزّ وجل قد عوّدك في الدعاء خيراً فادع الله لنا.

قال: «أتحبّ ذلك»؟ قال: نعم-أي: والصحابة كلهم

---

(١) عزاه في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ ودلائل النبوة للإمام البيهقي (٥/ ٢٢٧).

يحبّون هذا، فقد عبّر أبو بكر رضي الله عنه عنهم جميعاً.

فرفع صلى الله عليه وآله وسلم يديه نحو السماء، فلم يُرجعهما حتى قالت السماء فأظلّت ثم سكبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر)[1]. فجرى الماء فملؤوا أوعيتهم وشربوا واغتسلوا وتوضؤوا ونالوا كل خير.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أو أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: لمّا كان غزوة تبوك أصاب الناسَ مجاعة. قالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا ـ أي: إبلنا ـ فأكلنا وادّهنّا.

فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة لعل الله أنْ يجعل في ذلك.

---

(١) انظر صحيح ابن خزيمة (٥٣/١) حديث رقم /١٠١/، ودلائل النبوة للبيهقي (٥/٢٣١) ومجمع الزوائد (٦/١٩٤) وعزاه للبزار والطبراني وغيرهم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم».

قال: فدعا بِنِطع ـ أي: بساط من الجلد ـ فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم، قال: فجعل الرجل يجيء بكف ذُرَة، قال: ويجيء الآخر بكفّ تمر، قال: ويجيء الآخر بكِسرة. حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير.

قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليه بالبركة ثم قال: «خذوا في أوعيتكم».

قال: فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاءً إلا ملؤوه.

قال: فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أشهد أن لا إلٓه إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى اللهَ بهما عبدٌ غيرَ شاكٍّ فَيُحَجْبُ عن الجنة»[1] أي: ما من عبد يلقى الله على

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (١١/٣) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ومسلم في كتاب الإيمان (٢٧) كما هنا.

شهادة: لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بدون شك إلا أدخله الله الجنة. فإن كان لا ذنوب له دخل الجنة دونما توقّف، وكذلك إن كان له ذنوب وتاب منها، أما إن لم يتب منها فأمره إلى الله تعالى إما أنْ يعذبه مدة مؤقتة ثم يدخل الجنة، أو يدخل الجنة مباشرة برحمة الله تعالى؛ والحاصل أن نهايته إلى الجنة.

وهكذا فقد أثبت سبحانه للمهاجرين والأنصار متابعتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ أي: وقلّ أن يَثبت إنسان في ساعة العسرة والشدة، وهم ثابتون ومتبعون له صلى الله عليه وآله وسلم.

ولذلك كان صلى الله عليه وآله وسلم يُثني على المهاجرين والأنصار، ويمدح هؤلاء ويمدح هؤلاء، ويُوصي بالأنصار خيراً حتى يعرف الناس لهم فضلهم ومقامهم.

ولما اعتراه صلى الله عليه وآله وسلم مرض الوفاة، واشتدّ عليه الألم والمرض، ولم يخرج إلى

المسجد. مرّ أبو بكر والعباس رضي الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون ـ كما في البخاري[1] عن أنس بن مالك رضي الله عنه ـ فقال: ما يبكيكم ؟ قالوا: ذكرنا مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منا، فدخل ـ أي: العباس ـ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره بذلك.

قال: فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد عصب على رأسه حاشية بُرْدٍ.

قال: فصعد المنبر ـ ولم يَصْعَدْهُ بعد ذلك اليوم ـ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أوصيكم بالأنصار فإنهم كَرِشي وعيبتي» أي: هم مني وفيّ، وهم موضع سرّي وأمانتي «وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم».

فقد أمر صلى الله عليه وآله وسلم بالصفح عن

---

(١) في كتاب مناقب الأنصار (٣٧٩٩).

مسيئهم لأنهم كلهم أنصار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولهم حسنات كبرى شهدوها مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد شهد الله لهم بالإيمان الحق، والمتابعة الكاملة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلهم شأنهم ومقامهم.

ورضي الله عن المهاجرين والأنصار، ونفعنا ببركاتهم، ورزقنا حبهم، لأنّ حب الأنصار آية الإيمان.

وصَلَّى الله عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وعَلَى آله وَصَحْبِه وَسَلَّمَ
كُلَّمَا ذَكَرَهُ الذَّاكِرُونَ وَغَفَلَ عَنْ ذِكْرِهِ الْغَافِلُونَ
والحَمَدُ لله رَبِّ العَالَمِيْنَ



المحتوى

الموضوع	الصفحة

وصَلَّى الله عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وعَلَى آله وَصَحْبِه وَسَلَّمَ
كُلَّمَا ذَكَرَهُ الذَّاكِرُونَ وَغَفَلَ عَنْ ذِكْرِهِ الْغَافِلُونَ
والحمَدُ لله رَبِّ العَالَمِيْنَ



كتب لفضيلة الشيخ الإمام
عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالى

* حول تفسير سورة الفاتحة ـ أم القرآن الكريم .
* حول تفسير سورة الحجرات .
* حول تفسير سورة ﴿قٓ﴾ .
* حول تفسير سورة الملك .
* حول تفسير سورة الإنسان .
* حول تفسير سورة العلق .
* حول تفسير سورة الكوثر .
* حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين بعدها .
* هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان .
* هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان.
* تلاوة القرآن المجيد: فضائلها ـ آدابها ـ خصائصها .
* شهادة لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله ﷺ: فضائها ـ معانيها ـ مطالبها.
* سيدنا محمد رسول الله ﷺ: خصاله الحميدة ـ شمائله المجيدة .

* الهدي النبوي والإرشادات المحمدية ﷺ إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السنية .

* التقرب إلى الله تعالى: فضله ـ طريقه ـ مراتبه .

* الصلاة في الإسلام: منزلتها في الدين ـ فضائلها ـ آثارها ـ آدابها .

* الصلاة على النبي ﷺ: أحكامها ـ فضائلها ـ فوائدها.

* صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال .

* الدعاء: فضائله ـ آدابه ـ ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات .

* حول ترجمة الشيخ الإمام محمد نجيب سراج الدين الحسيني رحمه الله تعالى .

* الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها .

* الإيمان بالملائكة عليهم السلام ـ ومعه بحث حول عالم الجن .

* الأدعية والأذكار الواردة آناء الليل وأطراف النهار .

* شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث .

* أدعية الصباح والمساء ومعها استغاثات .

* مناسك الحج ـ ومعه أحكام زيارة النبي ﷺ وآدابها .

* الصيام: آدابه ـ مطالبه ـ فوائده ـ فضائله .

من آثار الشيخ الإمام رحمه الله تعالى (المطبوعة)

* دروس حول تفسير بعض آيات القرآن الكريم .

* محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم. الجزء الأول والثاني والثالث.

* محاضرات حول الإسراء والمعراج: آثاره ـ فضائله ـ أسراره.

* محاضرات حول هجرة رسول الله ﷺ.

* * * *

وكلها تطلب من مكتبة دار الفلاح

حلب : أقيول أمام جامع أسامة بن زيد رضي الله عنه

هاتف : ٣٢١٧٣٠٠ ـ ٣٢٢٤٩٠٠